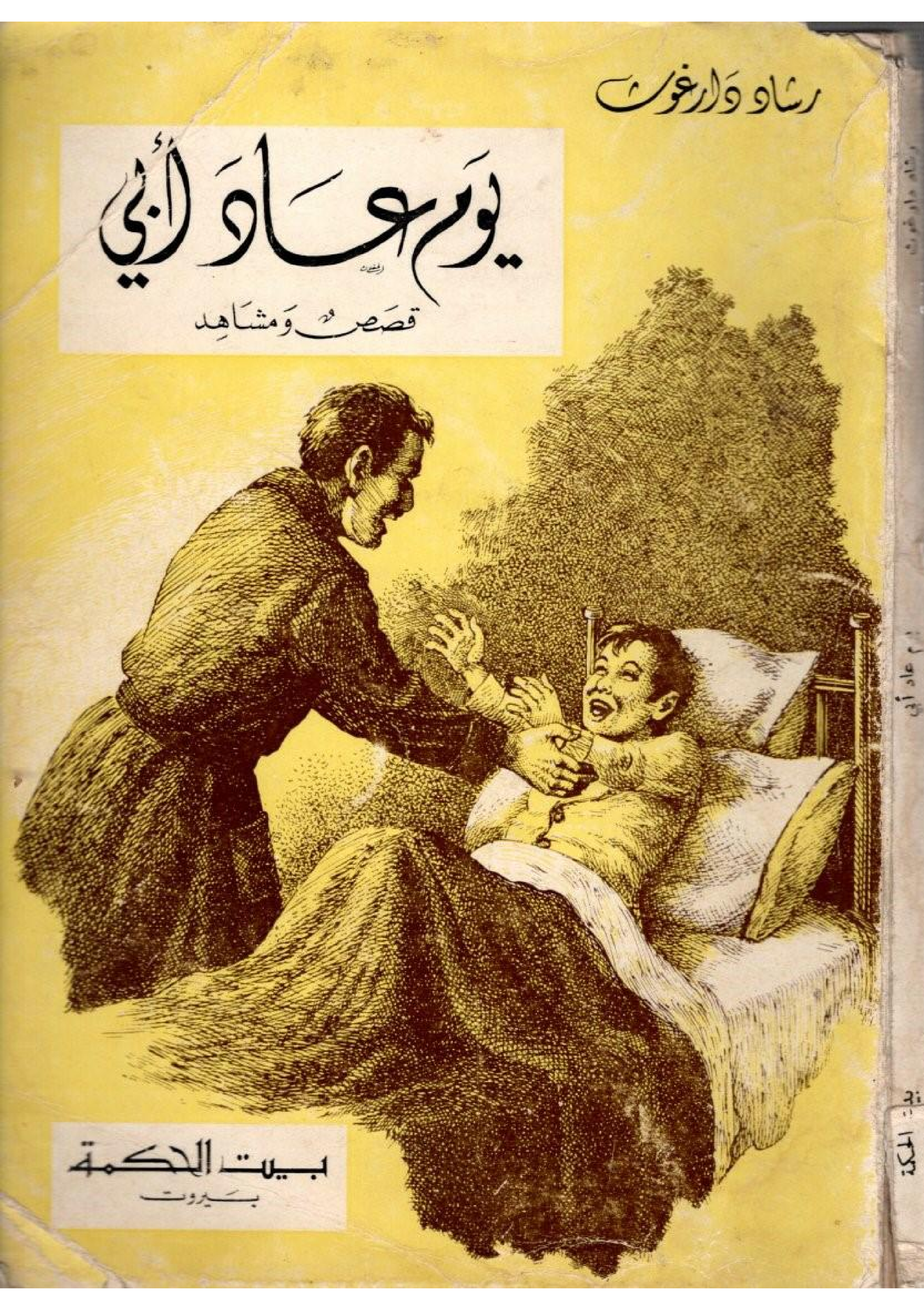


رشاد دارغوث
يوم عاد أبي
قصص ومشاهد
بيت الحكمة
بيروت

يوم عاد أبي

قصص ومشاهد

رشاد دارغوث



قصص ومشاهد

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف بريشة « رضوان الشهّال »

الطبعة الخامسة ، بيروت – لبنان ، كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥

يوم عاد أبي

قمت من فراشي ، وأنا ألعن القادم في تلك الساعة المتأخرة من المساء : فالبرد شديد ، والمطر يسقط منذ أيام ، والباب الخارجيّ بعيد عن الدار ، يفصله عنها حديقةٌ واسعة تنتهي بدَرج طويل .

وقد كنّا نقطن في قلب المدينة ، ضمن « السور » الذي كان يحدّها ، وعلى مقربة من « الجبّانة » ، مدينة الأموات ، فكانت الأشباح لا تفارق مخيّلتي كلّما وجدتُني وحيداً في الليل .

ولكنْ ليس من سبيل إلى التغافل عن سماع طَرق الباب . وهذا هو صوت أمّي يناديني آمراً ملحّاً :

– إفتح الباب يا ... « راضي » ! أما سمعت ؟ فقد يكون هناك بعض الضيوف !

ــ ألضيوف ! إلى جهنم ، هم وكلّ ثقيل ! أليس لنا عمل غير استقبال الضيوف ، وإعداد الطعام لهم ، وتهيئة فُرُش النوم ؟.. هل نحن نعيش في بيت ، أم في فندق ؟ ومتى نهتمّ بشؤوننا الخاصّة ؟ بل متى نردّ أموالنا على أنفسنا ؟.. ومتى يُتاح لنا ، نحن الصغار ، أن ندرس دروسنا ، ونكتب فروضنـــا ، إذا ثابر الضيوف على « غزونا » بهذا الشكل ، وثابر أهلنـــا على استقبالهم بالتّـرحاب ؟

قلتُ هذا ثم قمتُ من فراشي ، برغم كلّ شيء !.. ورحتُ أبحث ، في شبه الظلام الذي يلفّ الغرفة ، عن « النعلين » اللتين أحتذيهما في المنزل ، فلم أجدهما تحت سريري ، كالمعتاد ! فلا بدّ أنّ أحد الضيوف قد استعارهما ! وهل يخلو منزلنا من ضيف !؟

وتذكّـرت أنّ ابنةً لبنت عمٍّ بعيد لنسيبة أمّي... كانت قـد جاءت المدينة أوّل أمس ، ونزلت ضيفة علينا ... بانتظار أن تُنجز الخيّـاطة لها ثوبها الجديد . ثم هي لم تكتفِ بذلك ... بل حملت إلينا في الوقت نفسه بُشرى قدوم أمّها ، وأخيها ، وابن عمّـها ، وبنات

عمّتها الثلاث ، في الأسبوع القادم ... وقد حمّلوها إلى كلٍّ منا السلامَ والكلام سلفاً ، وقالوا لها : « قولي لهم ... حطّوا الصينيّة على النار !.. »

تذكّرتُ هذا كلّه ، وأنا أبحث عن نعليَّ ... فشعرت شيئاً كالنار يلذعني في قدميَّ العاريتين ... ولم يخطر ببالي أن يكون ذلك من أثر البرد ، إلاّ حينما فتحت باب الدار ، فصفعتني الريح الشماليّة على وجهي وصدري صفعةً أحسستُ لها ألماً كوخز الإبَر .

ولمّا وصلت إلى أسفل الدرج ، وأنا عاري القدمين ، حاسر الرأس ، من غير رداء آخر يَقيني البرد، غير ما كنت أرتديه من « بيجاما » رقيقة ... شعرت كأنّ تلك « النار الباردة » نفسها قد وصلت إلى عظامي !

وفتحت الباب ! فاذا بالضيوف هم أولئك الذين أعلنوا عن قدومهم منذ يومين ... إلاّ أنّهم ، لأمرٍ ما ، اضطُرّوا إلى استباق الزمن !.. ثم حدث لهم في الطريق حادثٌ أخّرهم حتى هذه الساعة . وقال أحدهم ، معلّلاً ذلك التأخّر :

ـ إنَّ دولاب السيّارة هو الذي انفخت غيرَ مرّة ،

فلا تؤاخذونا !

وماذا كان بوسعي أن أقول للضيوف الكرام ، غير « أهلاً وسهلاً ! تفضّلوا » ؟ ثم سبقتهم أعـــدو عدواً ، والريح تنفخ سموماً صرصراً ، فتدخل ، من خــلال الثياب، صميمَ عظامي ، فتكاد تنخرها نخراً !

★

ونزل الضيوف أهلاً ، وحلّـوا سهلاً ، أي احتلّـوا بيتنا ، بما فيه غرفتي الخاصّة ! وكانوا هم ، كأهلي ، يعلمون أنّني لا أستطيع الرقاد في غرفةٍ يُشاركني فيها مخلوقٌ آخر !

ولكنّ للضيافة أحكامها ! فما عليك يا « راضي » إلاّ أن تحمل فراشك، دون سريرك ، إلى غرفة إخوانك، وأن تنام هناك . . . على الأرض !

ولو لم تكن السوق مقفلة لكان عليك واجب آخر ، هو أن تسعى لتدبير ما يلزم من . . . مأكولات ! فالضيوف تركوا بلدتهم قُبَيل العصر فوصلوا إلى العاصمـــة بعد العشاء ! وإذن فلم يتمكّنوا من تنـــاول شيء من

الطعام في الطريق ... ولا بدّ من تقديم الطعام إلى الضيوف ، بعد القهوة أو الشاي ، والسكاكر ، والشوكولا ! أمّا السوق فقد كانت ، ولله الحمد ، مقفلة ! والليل قاتم ، والسماء ترسل الأمطار كأنّها تصبّ الماء من أفواه القِرَب ؛ ولم تكن الكهرباء قد عمّت المدينة كي تبعث في جنباتها بعض الأمان والاطمئنان .

لذلك اكتفت أمّي بتقديم ما تيسّر من « حواضر البيت » إلى ضيوف المساء ... واقتصرت مهمّتي على خدمة أولئك الضيوف في المائدة ، وهو واجب لا ينبغي لمن كان مثلي ، وكيل أبيه الغائب ، أن يتهرّب منه !

وكان من سوء حظّي أنّني كنت الولد البِكر ، فكنتُ ذلك الوكيل الذي عليه أن يقوم بالواجبات كافّة، من غير أن يملك من صلاحيّات الأصيل شيئاً !

★

أصبح صباح اليوم التالي ، وأصبحتُ على شرّ ! فإنّ في جسدي شيئاً غير طبيعيّ ! هذا الثقل في الرأس ،

وهذه القشعريرة في الصدر والظهر ، وهذا الزكام الشديد في الأنف ... كلّها أعراض كانت تُنذر بتوعّك صحّة الناشيء الذي كنتُه . ولكن لا بدّ – بل لا مهرب – من خدمة الضيوف : « سارع يا راضي إلى البقّال ، وإلى اللحّام ، وإلى الفرّان ، وإلى « الحلواني » ... ثم لا تنسَ ، وأنت عائد إلى البيت ، أن تمرّ ببيت جدّك ، فتدعوه مع جدّتك وأعمامك وعمّاتك إلى مؤاكلة الضيوف ... فإنّ بقاءهم وحدهم حول المائدة ، وخاصّة للمرّة الأولى ، إهانة لهم ... »

وهل يجوز لبيت ، كبيتنا ، عريق ، أن يكتفي باستقبال الضيوف ، دون تكريمهم التكريمَ اللائق ؟

فلمّا حان موعد المدرسة كنت قد أصبحت منهوك القوى ، فتمدّدت فوق سرير أخي الصغير فترة ... ثم غفَوت !

ولم أستيقظ إلاّ قُبيل الظهر ، على صوت أمّي التي أنجزت إعداد الأطعمة للضيوف ... فوجَدَتْ لحظة تتفقّد فيها صغارها ... ولمّا رأتني نائماً ، بلا

غطاء ، وجبيني يغلي بالحمّى كأنّه أتون ، صرخت بأعلى صوتها :

- يا ويلي !.. ألصبيّ مريض !

وفتحتُ عينيّ على مَضَض ، فرأيت أمامي شبحين اثنين ، كلّ منهما يُشبه أمّي ! ثم تكاثرت الأشباح أمام ناظريّ من غير أن أتبيّن واحداً منها ، ثم غِبتُ عن الوعي .

ولمّا استيقظت بعد يومين ، وجدتُني في سريري هذه المرّة ، ووجدتُ أهلي بأجمعهم ، والضيوف بأسرهم ، متحلّقين حولي ، يترقّبون صَحوَ هذا المريض العزيز الذي قال الطبيب إنّه مصاب بذات الرئة إصابةً خطِرة ، وإنّه ليس من أمل في شفائه إلاّ أن يشاء الله .

في هذه الأثناء طُرق الباب ... فكدتُ أقفز من سريري... لعلّ الطارق ضيف جديد ! وقد خُيّل إليّ ، برغم الحُمّى التي كانت تغلي في عروقي ، أنّ لوني قد انخطف هَلَعاً ... وسمعتُ أخي الصغير يقول ، وهو

يحرّق الأرَّم :

ـ ضيوف ... من غير شكّ !

وما هي إلاّ لحظات حتى أقبل القادم . وكان ضيفاً حقّاً ! ولكنّه كان هذه المرّة ضيفاً طال انتظارنا مجيئه ! إنّه أبي ! لقد فارقنا منذ سنين في سبيل كسب العيش ، بعد أن صارت موارده ، من عمله وأملاكه ، لا تكفي الضيوف وأهلَه معاً . وركض أبي الحبيب نحوي من غير أن يلتفت حتى إلى ناحيـــة أمّي ، برغم حبّه العميق إيّاها ... ورأيتُه ، بقامته المشوقة ، ووجهه المعبِّر ، ينحني عليّ ، فتكاد نفسه تفيض حناناً وإشفاقاً ، ثم يرفعني بين ذراعيه القويّتين ليجلس هو مكاني ، فوق سريري ، ويُجلسني فوق أحضانه !

وما عشتُ لن أنسى طعم القبلة التي طبعها حينئذ على نحري ، وهو يشمُّني بشَغَف غريب ! كما لن أنسى ما وجدته بعدها في كياني بأجمعه من شعور وقوّة ! وسمعتُ أبي يتمتم :

ـ سيعيش يا إلهي ! لا بدّ أن يعيش !

قال ذلك بوثوق الرجل المُلهَم ، وهو يرنو إلى السماء بعينيه المبتلَّتين بالدموع !

★

وشُفيتُ بعد قليل ... فكان شفائي شفاء للأسرة بكاملها من مرضها الخطير ! وكان فوق ذلك حائلاً دون اغتراب أبي من جديد ، فقد رفض بعناد أن يتركنا وحدَنا على الدروب الموحشة !

القلوبُ الكبيرة

ـ كيف حال المطبخ عندكم ؟

ألقى الحاكم هذا السؤال ، وترقّب أن يكون جواب الطلاّب عنه ، في الكليّة الجديدة ، جواباً إيجابيّاً ، تبيضّ له وجوه القائمين على إدارتها . ولكنّ الطلاّب وجموا ، فلم يُجِب واحد منهم بكلمة .

وكنّا ، عقيب الحرب العالميّة الأولى ، قبضة من الفتيان لا يتجاوز عددنا الثمانية في السنة الأولى ، كما لا يتجاوز العشرة في السنة الثانية . ولكنّنا كنّا ، برغم اختلاف البيئات التي نشأنا فيها ، والأقاليم التي قدمنا منها ، أشدّ وعياً من رفقائنا طلاّب المعاهد الأخرى ، بل أشدّ تمرّداً من طلاّب المدارس الثانويّة في هذه الأيّام .

ولا أدري الآن بالضبط سبباً لتلك الحالة النفسيّة ، إلاّ أن تكون من نتائج الحرب . فقد عاش أكثرنا فواجع تلك المجزرة الكبرى ، وتحسّسوا ويلاتها . فلمّا هدأ صوت المدفع ، وفتحت المدارس أبوابها من جديد ، كان أصغر الطلاّب يتجاوز حدود السنّ المعيّنة بأربع سنوات على الأقلّ .

وكرّر الحاكم سؤاله بصوت آمر عسكريّ ، ما تعوّد أن يذهب كلامه مع الريح :

ـ قلت كيف حال المطبخ عندكم ؟ أليس بينكم جريء يردّ ؟

وأحسست أنّ هذا التحدّي يعنيني دون سواي من الطلاّب والأساتذة الحاضرين . فقد كان أساتذتنا يفوقوننا عدداً ، كما كانوا يكبروننا ، بطبيعة الحال ، بطوناً ، واهتماماً بتغذية أجسامهم من أموال الدولة ، بعد تلك الحرب والمجاعة التي انتشرت في سنيها الأخيرة .

ولكنّني أحسست كذلك بوطأة ذلك الصمت الإجماعيّ ، حتى كاد السكون ينال صدري فيمتنع عن التنفّس .

وكان الحاكم جنرالاً خاض غمار تلك الحرب، وخرج منها بطلاً بعين واحدة، ورجل واحدة.

فتطلّعت إليه من مقعدي، وكان في مقدّمة الصفّ. فلم أرَ وجهه. لقد حجبه عنّي صدرٌ عامر تكسوه الأوسمة، وحزامٌ ضخم علّق به سيفاً جميل المقبض، وزركشاتٌ أخرى. فشجّعني هذا الحجاب على الردّ على تحدّي الجنرال بجرأة اقشعرّ لها بدني فيما بعد، وسمعتُني أقول:

- « كوم سي، كوم سا »، أي « هكذا وهكذا »

وما راعنا، أنا والرفقاء، إلاّ بسمة الحاكم الأبويّة للناشئ الذي كنتُه، وهو ينحني على مقعدي حتى رآني عياناً، ويقول:

- كيف تقول « هكذا وهكذا » أيّها الصغير؟ إمّا أن يكون المطبخ جيّد الطعام، وإمّا أن لا يكون! ليس من حدّ وسط في شؤون البطون!

حينئذ استجمعت كلّ ما أودعه الآباء والأجداد في دمائي وأعصابي من انطلاق وحرّية وجرأة، وقلت بصوت متهدّج:

ـ إنّه طعام غير جيّد !..

قلتها ، ثم دوّت في أذني نقمة المدير التي افترضتُها ، وتمثّلتُ عَجَب الأساتــذة الذين كانوا يطلقون عليَّ لقب « الحمل الوديع » ، وإعجابَ الرفقاء الذين أخذوا يتمتمون خلفي بكلمـــات التشجيع ، وسخطَ الوزير الحاضر ، والمفتّش العامّ الذي يرافق هذا الحشد كما ترافق أمّ العروس ابنتها إلى منزل الزوجيّة !

وانقلب الموقف رأساً على عقب ، ساعة جلس الحاكم في مكان الأستاذ على المنبر ، ثم وضع سيفه اللمّاع على المنضدة ، وخلع قفّازيه الأبيضين ، فبدت يــداه المعروقتان كأنّهما قضيبان من أرز « لبنان » . ثم أجاز لي الجنرال الجلوس ، ليزيد في هدوئي ووعيي على الأرجح ، وقال :

ـ مثلاً يا صغيري ؟ ولكن ما اسمك أوّلاً ؟

وأجبت بلا تلعثُم :

ـ إسمي « حبيب السماوي » . والمثل حيّ حاضر ، فهو طعام اليوم : لقد أعطوا الصائمين منّا صحن أرزّ وقليلاً من اللبن عنــد السَّحور ، وأعطوا غير الصائمين

الوجبة نفسها عند الغداء !..

ـ هذا فقط ؟

قالها الحاكم ، والشرر يكاد يتطاير من عينيه . فلمّا هززت رأسي إيجاباً ، وشهد رفقائي جميعهم بصوت واحد قائلين :

ـ نعم فقط ... أرزّ ولبن !

ضرب الحاكم بقبضته سطح المنضدة ، وصاح منفعلاً :

ـ آتوني لوائحَ الطعام لأرى !

وهنا انفجرنا ، نحن والوزير والمفتّش العامّ والأساتذة الحاضرون ، بضحكة مكبوتة زادت في انفعال الحاكم : لقد فهم مدير الكلّية ، خطأ ، أنّ المطلوب هو أن يقدّم برنامج الدروس ! فاستدار ـ يرحمه الله ـ بكرشه الكبيرة ، ورأسه الصغير ، وقامته الجبّارة ، نحو لوحة عُلّقت عليها التعليمات المدرسيّة ، ثم أخذ يقرأ للحاكم بنود ذلك البرنامج . والحاكمُ غاضب يصخب ، ثم يدفع بكلتا يديه المفتّش العامّ وهو يقول له :

ألا يفهم هذا الإنسان اللغة الفرنسيَّة ؟ إشرح له المطلوب !

وكان على المفتّش العامّ أن يسارع إلى تدارك الأمر، فيشرح للمدير المقصود من طلب اللوائح. فيستدير المدير من جديد، ثم يسير بخطى عسكريّة نحو مكتبه، تتبعه قهقهة بدأها الحاكم هذه المرّة، فتابعناه عليها تأدُّباً!

وأحسب أنّ هذا الموقف الهزليّ هو الذي لطّف من حرَج الساعة. وعاد المدير يحمل ملفّاً ضخماً، فقدّمه إلى الحاكم الذي فتحه كيفما اتّفق، وراح يقرأ بصوت عالٍ :

ـ الخميس ١٠ نيسان. فطور : شاي وزيتـون؛ غداء : حمّص بطحينة؛ عشاء : شوربا.

السبت ١٥ أيار. فطور : أرزّ بفول؛ غداء : جبنة وبطّيخ. عشاء ...

ولم يصل الحاكم إلى هذا الحدّ حتى أطبق الملفّ بعنف، ثم ألصقه بسطح المنضدة بضربة من قبضته، جاءت ختاماً لهذه المهزلة التي طالت أكثر ممّا ينبغي. وعلى الأثر ساد السكون من جديد، سكونٌ راعب

كالذي يسبق إصدار الحكم في جناية استوفى القضاة النظر فيها .

وأرهفت الآذان ، حتى خُيِّل إليّ أنّها استطالت على جانبَي الرؤوس ؛ ثم سمعنا الحاكم يقول بجد وهدوء :

ـ هذا أمر غير مقبول !... إنّهم شبّان ، وهم بحاجة إلى تغذية صحيّة وصحيحة ! أليس لديكم الاعتماد الكافي ؟

وجّه الحاكم سؤاله الأخير إلى الوزير الذي احتفظ حتى تلك اللحظة ببرودة الإنسان الذي لا يعنيه من الأمر شيء .

فلمّا ألقى الحاكم عليه سؤاله المحرج ، تحرّك كالحالم رُعْبَه ، أو كالماء ألقيتَ فيه بحجر ، ثم قال بسرعة وميوعة :

ـ المال موجود يا فخامة الجنرال ! وقد وفّرنا في الشهر الماضي من الاعتماد المخصّص مئةَ ليرة !

ـ ماذا تقول ؟ توفّرون المال لتقضوا على صحّة

هؤلاء الفتيان ، رجال المستقبل ؟ هذا لا يجوز !

قال الحاكم هذا بلهجة الآمر ، ثم التفت إلى مدير الكليّة وقال له بلهجة المربّي الفظّ إلى الأطفال :

ـ هيه ، أنت ! حسِّن المطبخ ، أتسمع ؟ وإلاّ ! . .

لم نفهم نحن الطلاّب من كلام الحاكم يومذاك أنّه تهديد بالعزل ، إلاّ حينما سارع المدير إلى تأليف لجنة منّا ، بعد ظهر اليوم نفسه ، عهد إليها بوضع لوائح الطعام ، وبمراقبة صنعه في المطبخ ، وبتنظيم تقديمه في المائدة . وقد جعل تلك اللجنة برئاستي ، ثم قال لي بلهجة ساخرة متحدّية :

ـ هذا كي تأكل ، وتشبع !

وأحسست بكلمات المدير كأنّها وخز الدبابيس في جنبي ، فأجبته ، وقد زايلني كلّ احترام لهذا الرجل في ذلك الموقف :

ـ أنا لم أدخل الكليّة لآكل ! ولكنّني ، كسائر رفقائي ، بحاجة إلى الأكل كي نعيش وننمو .

وهكذا سارت الأمور على ما يرام ، في المطبخ ، وفي

المائدة ، وفي الكليّة ، ولا سيّما أنّ الرقابة التي فرضناها حالت دون تسرُّب أحسن المأكولات وأطايب الحلويات إلى بيوت المدير والأساتذة من أصحابه . بل هؤلاء وسواهم صاروا جميعهم يأكلون من طعامنا ، ويجلسون إلى مائدة الكليّة معنا .

ولم يكن يخطر ببالي أن يحفظ المدير في نفسه مَوْجِدةً للفتى الذي دافع عن حقّ إخوانه ، وحقّه ، في الغذاء الصحيّ ، فينتقم منه فيما بعد وحينما سنحت له الفرصة .

وكانت تلك فرصة الامتحانات النهائيّة . فقد أعلن عميد الدروس ، في حلقة توزيع الشهادات ، أنّ « حبيب السماوي » قد نجح بامتياز عالٍ في فحوصه كافّة ، وأنّ من حقّه بالتالي الحصول على منحة التخصُّص في جامعة « السوربون » . . .

وكان رفقائي أشدّ سروراً بما نلتُه عن جدارة منّي واستحقاق ، فغمروني بالتهاني ، كما غمرت الصحف اسمي بالتمنّيات والتشجيع . فقد كانت البلاد بحاجة إلى رجال

الاختصاص ، مثل حاجتها إلى الخبز والأمن والعدل وسائر مقوّمات الدولة المتحضّرة !

ثم مضت الشهور ، وأعقبتها السنون ، فلم يَرِد إليّ إشعار بالمنحة ، ولا استطعت أن أعرف السبب في حجب هذا الحقّ عنّي. حتى كانت الحرب العالميّة الثانية ، وكانت بلادنا عرضة لهجوم صاعق ، فسقط على الكلّية بعضُ القنابل المدمِّرة والمحرقة ، فبعثرت سجلاّتها ونثرت أوراقها .

وجئت بعد أيّام إلى الجزّار المجاور ، أشتري منه مؤونة يومي من اللحم ؛ فوجدت عنده ، بين أوراق الصرّ ، بقيّةَ سجلّ مدرسيّ قديم ، قرأت في إحدى صفحاته ملاحظةً غير موقَّعة تقول :

ـ « حبيب السماوي » طالب ممتاز في دروسه وسلوكه وأخلاقه ، ولكنّه مغرض في أحكامه .

وقد سطّر كاتبها تحت الجملة الأخيرة خطّاً عريضاً !

فادركت حينئذٍ ، وقد أصبحت دكتوراً في الحقوق

على نفقتي الخاصّة، أنّ هذه الملاحظة بالذات هي التي حالت دون تخصيصي بمنحة الدولة، منذ ربع قرن!

وأدركت كذلك الفرقَ بين القلوب الصغيرة التي لا تتّسع لغير الأحقاد، والقلوب الكبيرة التي تتّسع لمحبّة الناس... جميع الناس، حتى الخصوم والأعداء.

أضواءُ المدينَة

أضواء المدينة كانت تبهر بصره ، منذ نشأ . فقريته تطلّ عليها كأنّها شرفة رُكّبت على حافة عشّ في أعلى شجرة .

ـ هذه الأضواء ، ما أروعها في الليالي الصافية ! إنّها كقطع الألماس في عِقد يزين صدر حسناء .

يقول الفتى هذا ، ثم يتصوّر الناس يسرحون في شوارع المدينة ، أو يسبحون عند شواطئها ، فيزداد تعلّقاً بتلك الأضواء ، يمتّع بها نظره في ساعات الليل التي تشتدّ فيها الظلمة في القرية ، وهو يفكّر :

ـ لا ضوء ، ولا وجه يشرق ، في هذه « الخربة » . حتى أمّي تتركني هنا نهاراً مع العنزة والكلب ، لتذهب إلى المدينة وتكسب ثمن قُوْتنا .

وفي الواقع كانت « المزرعة العليا » قد أقفرت من السكان في مدى خمسين سنة ، إلا القليل القليل : من لم يمت منهم حملته رياح الهجرة إلى بعيد ، إلى غير عودة ، ومن بقي بعد المجاعة والحرب ، من العجزة والضعفاء ، تركوا شغل الأرض ، وعافوا الصناعات اليدويّة ، لكي يهبطوا إلى المدينة ، حيث يعملون خدّاماً في المنازل ، أو باعةً متجوّلين ، أو ماسحي أحذية .

وتدفّقت على البلاد موجاتُ اللاجئين من كلّ حدب وصوب ، فراحت تزاحم هؤلاء على لقمتهم المغموسة أبداً بالشقاء والمهانة ، فأصبح العيش صعباً في كلّ مكان ، حتى الاستعطاء لم يبقَ مهنة تدرّ على أهلها الثروة ، كما في الماضي .

ويقول الفتى اليافع :

ـ ومع ذلك سأنزل إلى المدينة متى استطعت . وسأجد العمل والمال . ومن يدري ، فربّما صرت رجلاً مشهوراً ، مثل « خليل بك » .

و« خليل » هذا كان ابن الجيران ، وكان رفيقاً لوالد الفتى ، في الحقل ، وعلى البيدر . فلمّا غادر القرية إلى

المدينة ، ومنها إلى المهجر البعيد ، صار من حملة الألقاب ، لأنه صار من أصحاب الثراوت .

ويذكر الفتى يوماً لا ينساه أبداً ، يوم عاد « خليل بك » أول مرة إلى « المزرعة العليا » . إن الحفاوة والتكريم اللذين لقيهما الرجل الكبير ، من أهل القرية ، كانا مظهراً من مظاهر تقديس المال ، لا شخص الإنسان العائد . . .

ـ ألزهور فرشوها تحت أقدامه . والسجاد زينوا به أبواب المنازل وشبابيكها . وكان الناس يتسابقون للسلام عليه في منزله كأنه أمير فاتح ، أو أحد أثرياء البترول . مع أنه عاد إلى القرية كما غادرها : نصف أميّ ، يكاد لا يحسن كتابة اسمه .

وبعد صمت ، واسترسال في مناجاة المنظر الطبيعيّ الرائع الذي يبدو بين « المزرعة العليا » وشاطىء البحر الذي يتراءى قريباً ، قال الفتى لنفسه بجزم :

ـ ما الذي ينقصني كي أصير مثل « خليل بك » ؟ فأنا متعلّم أكثر منه ، وابن عيلة أشرف من عيلته !

في هذه اللحظة قرّر الفتى أن يسلك إلى الثروة أقرب طريق :

- ورقة يانصيب ... ثم آلاف الليرات ... ثم فيلاّ وسيّارة ، وخدم وحشم .

إلاّ أنّه توقّف قليلاً عند فكرة الشراء : أيختار الدارة قبل السيّارة ، أم يشتري السيّارة ، ثم يبني له دارة مناسبة ؟

وتنقضي الأيّام ، والفتى يجمع القرش إلى القرش كي يوفّر ثمن ورقة اليانصيب ، جواز مروره إلى الغنى ، كما قرأ في الصحف والإعلانات على الجدران .

وقد رأى هو بعينه رسوم الفتيان والشيوخ الذين ربحوا الجوائز الضخمة قبل اليوم ، فليس عنده شكّ في أنّها جوائز للجمهور ، وأنّ نصيبه سيكون أضخم تلك الجوائز على الإطلاق .

في منتصف الربيع تيسّر له أن يجمع خمس ليرات كاملة ، وبعض «الفراطة» . وهو يخجل الآن أن يصرّح ، حتى لنفسه ، كيف استطاع في مدى هذه الأشهر الأربعة أن يوفر هذا المبلغ الكبير : فأمّه الأرملة لا تكسب

أكثر من ثمن قوته وقوتها ، والعنزة يكاد يجفّ حليبها من قلّة العلف . إلاّ أنّ الدجاجتين الباقيتين ما برحتا تبيضان ... فهو يخفي بيضة من اثنتين ، ويزعم لأمّه أنّهما باضتا بيضة واحدة في اليوم ، أو ثلاثاً في اليومين ، حسب الظروف . وكان يُودِع تلك البيضات الزائدة عند بقّال في الضيعة ، وهو البيّاع الوحيد الذي استطاع أن يثابر على البقاء في « المزرعة العليا » متحدّياً الأزمات والأقدار .

وحينما نزلت أمّه الى المدينة ، في الصباح الباكر على عادتها ، أخـــذ الفتى يستعدّ بدوره لمغادرة القرية ، لأوّل مرّة في حياته . ومع ذلك فلم ينسَ أيّة حاجة من الحاجات التي قرّر أن يتزوّد بها . وقد حاسب البقّال ، وقبض منه ثمن البيضات ، وضمّ المبلغ الحاصل إلى ما تجمّع عنده من مال في المخبإ السريّ الذي أحدثه لنفسه خلف خمّ الدجاج .

ثم وقف عند السنديانة التي تظلّل مفرق الضيعة ، منتظراً مرور « البوسطة » كي يودّع تلك الضيعة

وأهلها إلى الأبد .

وهكذا وصل الفتى إلى المدينـــة حوالي الظهر ، فتعجّب من وفرة السيّارات فيها ، وازدحام المشاة ، في شوارعها وأزقّتها ! كما أعجب بالناس الذين يرتدون الثياب النظيفة المرتّبة ، وينتعلون الأحذية اللمّاعة ، مع أنّهم ذاهبون إلى عملهم أو عائدون إلى منازلهم لتناول الغداء .

وكان أهمَّ ما اهتمّ له الفتى المراهق أولئك النسوةُ اللواتي يوازي عددهنّ عـــدد الرجال في كلّ مكان ، وخاصّة في المحالّ التجاريّة ، وعلى أرصفة الشوارع العريضة . ولم يفقهْ سرّاً لتوقّف أكثرهنّ طويلاً أمام واجهات تلك المخازن ، أو داخل المحالّ ، من غير أن يشترين شيئاً أو يبعن حاجة . وهنّ مرتديات ، منذ الصباح ، أحسن الثيـــاب ، ومتّخذات أروع الزينات .

ولم يمضِ إلاّ القليل على وجوده في المدينة حتى وصل إلى مكان أحاط به فيه باعةُ أوراق اليانصيب :

ـ أليوم السحب ... بكره السحب ... هذه ورقة تربح ... إن شاء الله تكون أنت الرابح ... يا شابّ ... خذ نصف هذه الورقة ... ما في غيرها ، يا شابّ ... الله يربّحك ...

وبرغم رغبة الفتى الملحّة في الحصول على الورقة التي حلم بها سنين طويلة ، وجد نفسه تعزف عن الشراء من أولئك الأولاد والأطفال الذين يتعلّقون بالمارّة ويلحّون كأنّهم الشحّاذون .

ووجد نفسه واقفاً أمام أحد باعة التبغ يسأله إذا كانت الورقة التي تنتهي برقم ٧٢ عنده .

ـ ولماذا هذه الورقة بالذات ، لا سواها ؟

فيبتسم الفتى عن أسنان بيضاء ، قويّة كأنّها أسنان مشط عاجيّ ، ويقول :

ـ لأنّني حلمت أنّها هي الرابحة هذه المرّة .

وينقد الفتى البائعَ ليراتِه الخمس ثم ينصرف ، وهو يكاد لا تسعه ثيابه المهلهلة : لقد وضع مفتاح الثروة في

جيبه اليمين بين « الفراطة » الباقيـــة معه ، وهي جماع ثروته .

★

في اليوم التالي أذاعت محطّة الإذاعة أوصاف الفتى ، وسألت من يعرف مقرّه أن يتّصل بها لتطمين ذويه . فإنّ مخدومي أمّه ، وهم من كبار الأغنياء في المدينة ، ساعدوها على ذلك الإجراء للتحرّي عن ابنها الضائع . ولكنّ الفتى لم يسمع الإذاعة لأنّه كان ينام على الرصيف في مدخل بعض الأبنية الجديدة ، بانتظـــار الثروة التي لم يبقَ بينه وبينها سوى أربع وعشرين ساعة .

وفي تلك الليلة بالذات شنّت إدارة مكافحة التشرّد حملة قبضت في أثنائها على خمسةَ عشرَ ولداً ، فكان فتانا من بينهم. ثم زجّتهم جميعاً في الإصلاحيّة ، وأفردت من بينهم ضحايا الهيرويين لإدخالهم مستشفى الأمراض العقليّة .

ويحاول الفتى أن يتهرّب :

ـ أنا من قرية « المزرعة العليا » ، جئت أبحث عن

أمّي في منزل « الأمير » الذي تخدمه ، ففاتتني البوسطة ولم تكن معي أجرة المبيت في فندق .

ولكنّ إدارة المكافحة لا تصدّق هـذه الأقوال وأمثالها ، لأنّها تعوّدت أن تسمع تلك الذرائع من أفواه المتهرّبين من قبضة القانون .

وكاد الفتى يصاب بالإغماء ساعة سمع في الإذاعة - وهو في الإصلاحيّة هذه المرّة - أرقام الورقة الرابحة للسحب العشرين الذي يترقّبه ؛ فراح يتحسّس ورقته في قعر جيبه ، ثم أخرجها منه ليقرأ رقمها من جديد ، للمرّة المئة ، فلم يجد عليها أيّاً من الأعداد الرابحة المحظوظة !

ويُصاب الفتى بانهيار عصبيّ ! إنّه يصرخ ويعربد كالسكران ، طالباً إعادته إلى أمّه في « المزرعة العليا » . وإدارة الإصلاحيّة تكتفي بإدخاله إلى الحمّام ، بعد كلّ نوبة ، كي يتلقّى « دوشاً » بارداً يهدّىء أعصابه ، خشية أن تمتدّ يداه إلى محتويات المكان بالتحطيم ، أو إلى رفقائه بالأذى .

وما كان أشدَّ دهشةَ الإدارة يوم وصلت سيِّدة لا تنقصها الأناقة ، ولا مظاهر الغنى الفضفاض . أقبلت في سيّارة « كاديلاك » تسأل عن الفتى ، وتقدِّم نفسها باسم :

ـ الأميرة « لبنى » ...

فيتراكض الخدم والموظّفون ، ويتبارَون في تقديم الاحترام والواجبات الأخرى . ثم يُقبل المراهق وراء مدير الإصلاحيّة :

ـ أمّي !

وتحتضن « الأميرة » ابنها ، والدموع تنهمر من عينيها .

وفي طريق العودة كانت أمّ الفتى تقصّ عليه ، وهو لا يصدّق ، أنّ مخدومها الأمير صار زوجها منذ شهر ، أي بعد أن غادر هو المنزل بأسبوع واحد .

ويبتسم الفتى ابتسامته العريضة ، ثم يفتح عينيه على تلك الثروة التي لم يحلم بها ، وهو ينظر تارة إلى

وجه أمّه المتألّق ، وقد عاد إليها شبابها ، وطوراً إلى أضواء المدينة التي بدأت تلتمع في القريب البعيد ، كأنّها قطع الألماس يزين ِجيد هذه الحسناء « الأميرة » ويقول وهو يرتمي على صدرها :

– ليس في الدنيـــا أجمل منك ، ومن قريتنا ، يا أمّاه !

خِلافات محبَّبة

كان كلّما التقى جاره الجديد، في الحيّ الذي انتقل إليه منذ أكثر من سنة، يبادره بسؤال لا يتبدّل:

ـ كيف الصحّة؟ وأين أنت فلا نراك؟

فيعتذر «رمزي» اعتذارَ الإنسان المهذّب، وهو يقول:

ـ نحن مشتاقون، ولكنّ الظروف، ظروف العمل، والحياة المعقّدة...

ثم ينصرف الجاران، هـذا إلى مكتبه في البناية العاشرة لوكالة الاستثمار العلنيّة، وذاك إلى متجره في سوق الصاغة...

كان هذا منذ عشرين سنة. وقد استمرّ كلٌّ من الجارَين على موقفه. فليس وراء علاقتهما أيّ مطمع أو

مصلحة ، ولا سبيل إلى توثيق تلك العلاقة الجوارّية بين رجلين يفرّق بينهما كلُّ شيء : السنّ ، وطبيعة العمل، والمستوى الثقافيّ ، فضلاً عن النظرة المختلفة إلى القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة .

غير أنّ « رمزي » كان معجباً بذلك الجار اللطيف الذي أشرف على الخمسين ، وهو لم يبرح فتيّ المظهر ، ضاحك السنّ ، مرح المعشر . ولعلّ هذا المرح بالذات هو سبيله إلى الاحتفاظ بنشاطه وموفور حيويّته ، برغم أنّه لم يبرح ، منذ نزل إلى السوق ، بعد إنهائه دراستَه الابتدائيّة ، يباشر عمله اليوميّ الرتيب ، من غير ملل أو كلل ، أو راحة أو استجمام .

وكان « رمزي » يغبط جـاره على شيئين : تلك الحيويّة التي تُذكيها مطامعُ التاجر في ربح أوفى ، وفي صفقة أكبر ؛ وهذا المرح الذي فارقه هو منذ غادر الجامعة ، يحمل بيديه شهادة الاختصاص في علم النفس والشؤون الاجتماعيّة ، ويحمل كذلك متاعب النـاس ومشاكل المجتمع فوق كتفيه !

ويزداد « رمزي» غبطةً لجاره كلّما رآه سعيداً بين

أهله وأقربائه ، يجتمع إليهم بصورة دوريّة ، ويسعون جميعهم لزيارته في مواعيد لا تتبدّل : فهو كبير العيلة ، وهم يحفظون له كرامة الكبير ، ويردّدون المثل اللبنانيّ القديم : « إذا لم يكن في بيتك كبير ، شوف لك حجر كبير » .

في حين يرى هو أهله يتباعدون عنه ، لا لذنب اقترفه عندهم ، بل لأنّه أرفع منهم مستوى ، فكريّاً ، واجتماعيّاً : تعلّم وظلّوا في جهلهم ، وتطوّر بينما بقوا هم في تخلّفهم وتمسّكهم بالتقاليد البالية . وهم يعملون بكلّ ما وسعهم من حيل على شدّه إلى مستواهم . وهو يوفّر لهم الأسباب ويساعدهم ماديّاً ومعنويّاً . فيتّخذون من ذلك كلّه حججاً يهدمون بها البناء الذي يشيّده ، وينشرون عنه الشائعات المغرضة ، والأقاويل المنحطّة .

في ذات يوم أحسّ « رمزي » أنّ بعض الشائعات وصل إلى جاره الجديد ؛ فقد اعترضه الجار وهما في الدرج وقال :

ـ نسيت أن أسألك عن الصيد هنا ، كيف

وجدته ؟

قالها الجار ، وهو يبتسم بسمة ذاتَ دلالة ، زادتها وضوحاً سنٌّ ذهبيّة تزيّن جانب فمه ، ولا تظهر إلاّ حينما تعرض البسمة وتعمق ، ساخرة متحدّية . وقد أدرك « رمزي » على الفور مغزى تلك البسمة ، كما أدرك معنى « الصيد » في سؤال الجار العزيز . فابتسم بدوره ، ولكن من غير مرح هذه المرّة ، وإن كان مرح جاره يعدي وينتقل بسرعة خاطفة . ثمّ شدّ على يده التي لم تزل بين أصابعه ، وهو يقول :

ـ ألا تقولون النظافة من الإيمان ؟ وصيد الذّبان ، لتطهير المنزل من أوساخه ، ومن الجراثيم التي ينقلها ، أفضل من صيد الطيور ، لأنّه من النظافة ، من الإيمان .

ووافق الجار على هذا الرأي ، وهو يخفض رأسه ويحرّكه على صورة تعني الإذعان والإيمان . إلاّ أنّه أحبّ أن يستزيد من أجوبة « رمزي » التعليليّة لسلوكه ، فقال :

ـ ما رأيك بهذه المعركة ؟

وما راعه إلاّ ردّ « رمزي » بسؤال آخر ، ينفي الأوّل ويوضحه معاً :

ـ معركة ؟ وهل تدعو هـــذه المساخر معركة يا جار ؟

فما كان من الجار إلاّ أن استلّ يده من بين أصابع الرجل الهادىء الذي يحدّثه من غير انفعال ، وإن كان قد تعمّد طعنه بخناجر أخصامه وحاسديه . ثم قال وهو يكاد يعتذر :

ـ الحقيقة أنّك ، يا جار ، رجل قليل أمثالك !

ثم بعد فترة :

ـ ولماذا لا تشتغل بالسياسة ؟

قال هذه الكلمات بـــلا خبث ، ولكنّ « رمزي » انفعل لها ، فأجاب بحماسة :

ـ ألسياسة ؟ السياسة المعروفة ؟ لا قيمة لها عندي ، ولا أهتمّ لهــا . أمّا السياسة التي تبني للناس مجتمعهم وأنظمتهم ومستقبلهم على أسس وقواعد ، فتلك غايتنا وعملنا في كلّ يوم .

لم يصل « رمزي » إلى هذا الحدّ حتى كان جاره قد عاد إلى وقاره ، وإلى موقف الإنسان الجديّ تجـــاه الإنسان الجديّ . فإنّ ما سمعـــه إذن عن وسواس « رمزي » ، بحيث يقضي أوقات فراغه في محاربة الذبّان تلذُّذاً بصيده ، وعن ابتعاده عن المجتمع مكتفياً بمطالعة كتبه ، وعن أنانيـّته بحيث لا يحبّ أحداً من الناس ... هذه الأقاويل جميعهـــا دسائس رخيصة ، وحكايات يختلقها جماعة منقوصون قصّروا عن اللحاق بهـذا الرجل ، فوقفوا خلفه يشنّعون عليه حسداً ولؤماً .

ثم ، بعد لحظات ، كانت البسمة قد عادت إلى ثغر الجار ، فانطبعت بسمة مثلها على وجه الرجل . قال له ، وهو يودّعه :

ـ أنا ممنون لهذه الوقفـــة ، وأتمنّى أن تأذن لي بزيارتك في المنزل ، لكي أتمتّع بجلسة أوفى منها ، وأستفيد .

وكان على « رمزي » أن يشدّ من جديد على يد جاره المبسوطة ، وهو يقول متواضعاً :

ـ أستغفر الله ! أنا الذي يستفيد من زيارتك ! متى شئتَ كنتُ على استعداد لاستقبالك . أهلاً وسهلاً .

وتفارق الجاران على موعد قريب . ووصل «رمزي» إلى منزله مرهق الأعصاب ، محطّم القوى . فقد تصوّر أولئك « الأهل » الذين يبني لهم في كلّ يوم مجداً لكي ينهشوا لحمه ، ويعلي بين الناس اسمهم لكي يهدموا مجده ، فتألّم ألماً يحزّ في اللحم ، ويغلي الدم ، وينفث في الروح مراره كالسمّ .

وعلى فراشه الذي استلقى عليه ، منذ وصل ، وجد كتاباً « مجموعة قصص ، كان أمس قد بدأ مطالعتها ، ففتحه كيفما اتّفق ، فوجد عنواناً لقصّة أعاد إلى نفسه بعض الهدوء : « أخوّة حناجر » . ثم تحت العنوان يقول الكاتب ، في مستهلّ قصّته : « هذا تعبير شائع في بلادنا ، فإذا كان الأخ أخا حنجرة ، كان معنى ذلك أنّ أخوّته كاذبة مصطنعة ، تبدأ في حنجرته ، وتنتهي مع الكلمات ... »

حينئذٍ انبسطت أسارير « رمزي » ، فقد بدا له

جليّاً أنّه ليس الإنسان الوحيد في هـــذه الدنيا الذي يشكو من أخـــوّة الخناجر ، ونفاق الأهل ، وحسد الأقارب .

ولكنّـه سرعان ما عاد يفكّـر بجدٍّ في هـــذا السؤال :

ـ كيف أقضي على هذه الرّوح الشرّيرة ؟ أليس من سبيل لتحسين العلاقات بين الأهل ، مقدّمة لتحسينها بين المواطنين ؟

وخُيّـل « لرمزي » أنّه قـــد اكتشف الدواء الذي جهله المصلحون السابقون ، حينما دُقّ الباب . فقام ليفتحه ويستقبل امرأته وأولاده العائـدين من السينما ، وهم يتناقشون حول موضوع الفيـلم الجديد . ويقول كبير الأولاد :

ـ أنحس فيلم حضرته في حياتي !

فيجيبه أصغرهم :

ـ أحسن فيلم رأيته حتى الآن !

حينذاك أدرك الرجل أنّ اختلاف الناس أمر لا غنى

عنه ، لأنّه مظهر للحيـــاة التي تموت منذ تصبح على وتيرة واحدة .

ويقول « رمزي » لأهله ، وهم يتابعون نقاشهـــم الصاخب :

ـ لا تكونوا إخوة حناجر ! إتّفقوا على الأقلّ على الجوهر ، جوهر الفيلم وجوهر علاقتكم . إذا كان أخوك ، وهو أوعى منك ، يعتبره سيّئاً ، فلا مَناص لك من أن تفيد من تجربته ووعيه .

ويردّ الصغير الذي لم يؤمن :
ـ ولكنّني أنا ابن اليوم .
فتتضاحك الأمّ وتقول :

ـ إسمع ، إبن اليوم مثل ابن الغد، كلاهما ابن الأمس . ألستم أولاد أبيكم وأولادي ؟

ويصمت الجميع هذه المرّة . فقد انبعثت من زاوية الراديو موسيقى هادئة رائعة ، غمرت المكان بجوّ حالم . وأسدل الليل على الكون حجاباً رقيقاً من حلّته السوداء، فزاده غموضاً وجمالاً .

حينما تصدق الرؤيا

كانت رؤيا ! حلماً حلم به منذ ربع قرن مضى ، فأصبح اليوم حقيقة واقعة ! لقد تحقّقت رؤياه على صورة تترك العقل مدهوشاً ، وتصفع العِلم على أمّ وجهه ! فيتألّم ، ويشتدّ به الأسف ، حتى يكاد الدمع يطفر من عينيه ! وهو الذي ودّ لو تكذّب الأيّام ما رأى ، وترأف الأقدار بما عنتهم تلك الرؤيا الغريبة !

إنّه يذكر ما كان ، وكأنّه جرى الليلةَ البارحة ! لقد كان يافعاً ، يعمل كي يساعد أباه ، ربّ العيلة في كسب رزقها . وكانت العيلة وفيرة العدد : أربعة صبيان وثلاث بنات ، جميعهم أصغر منه . فكان بطبيعة الحال هو الضحيّة الأولى للاستهتار الذي تعيش في كنفه الأسرة الشرقيّة ، فلا تفكير في الغد، ولا في مستقبل الأولاد

الذين تنتجهم .

كان الفصل صيفاً ، والمدينة ترزح تحت كابوس الحرّ والرطوبة في لياليها القصيرة ، ونهاراتها التي لا تنتهي !

في إحدى تلك الليالي نام ، على جاري عادته ، قُبيلَ الساعة العاشرة ، بعد أن قرأ في كتابه المفضّل بضع صفحات ، استجلاباً للنعاس . وما راعه بعد ذلك إلاّ أن يرى نفسه يسير في ساحة وسيعة ، مترامية الأطراف ، قد خلت من الناس والحيوان ، وتراكمت فيها الوحول والأقذار . فراح يخوض ذلك الخضمّ الغامر جاهداً ، تكاد تغوص ساقاه في الوحول حتى الرُّكَب . وكان يجد لذلك السير المرهق تعباً في قدميه ، وتقزُّزاً في نفسه . فيحاول أن يستنجد بمخلوق يساعده ، فلا تقع عيناه لا على إنس ولا على جان .

وبعد فترة ، طالت كأنّها لن تنتهي ، استطاع الخلاص بأعجوبة من تلك الغمرة الموحشة ، والطريق الموحلة ، وذلك الضّيق المرهق . وإذا بر َشاش يتطاير من

الوحول السوداء ، فيقع على شفتيه ، فتسقط أسنانه جميعها دفعة واحدة ! ويزيده ذلك رعباً وإرهاقاً .

ولكنّه عمد إلى تلك الأسنان فتناولها بكلتا يديه . فاعتراه ، وقد تجمّعت فوق راحتيه ككومة من الذُّرة ، إحساسٌ غريب ، اضطرب له وتطيّر منه . وتذكّر في تلك اللحظة الحرجة أنّ والده ممّن يفسّرون الأحلام ؛ فلطالما قضت العيلة ساعات الصباح الأولى في التندُّر بالمرائي ، وتفسير مراميها ومغازيها . فما عليه إلاّ أن يسرع إلى ذلك الوالد ، فيقصّ عليه رؤياه ، والأسنان ما برحت في راحتيه ، صفّاً فوق صفّ ، تلمع كقطع الزجاج الصفيق .

ويقبل على والده في لمحة عين . وإذا هو ، كما يعهده ، متجهّم الوجه ، عصيّ النظرات . ولكنّه يبادر الفتى ببسمة تخفّف من قساوة ملامحه ، ويقول له :

ـ ماذا تحمل يا ابني بيديك ؟

ـ أحمل أسناني . لقد سقطت جميعها يا أبي ، كما ترى ، منذ وصل إلى فمي رشاش من الوحول التي خضتها في المنام !

حينئذ يبتسم الوالد ويقول ، وهو يداعب شفتي ابنه بأنامله المصبوغة بصفرة التبغ :

ـ إفتح فمك كي أرى !

ويفتح فمه ، فيرى أبوه ، ويرى هو كذلك ، في مقدّمة فمه ، سنَّين جديدتين كانتا على وشك أن تنبتا . وقد بدت جذورهما تحت اللثة الشفّافة أشبه بحبّات من اللؤلؤ تخوض في اللحم الأزهر ، وكأنّها الوجه المشرق يبتسم من وراء حجاب رقيق .

ويربِّت الوالد بسَبَّابته الدقيقة موضع السنَّين من اللِّثة ، وقد انطلق محيّاه بعد العبوس ، ويقول :

ـ لا باس . سينبت منك مَن تستعيض بهم عمّن فَقَدْت . لا بأس يا ابني عليك ، وبُورك في نسلك !

ويضحو عند هذه الكلمات مضطرباً : « أفي يقظة كنت أم في منام ؟ وكيف أفقد إخواني جميعهم ، ثم تحلو لي الحياةُ بعدهم ؟ أليس المرء بأخيه ، بإخوانه وقومه ؟ يا ربِّ جنِّبْني هذا المصير وارأف بأهلي ... ! »

تلك الصلاة ارتفعت من قلبه فور استيقاظه ، وإن لم يجرؤ لسانه على البوح لأحد بالسرّ الذي استدعى تلك الصلاة .

ثم قام ، ودخل على والديه في حجرتهما ، وهو مصمِّم على أن لا يقصّ رؤياه عليهما ! وكيف يُعقل أن ينعى إليهما أعزَّ المخلوقات على قلبيهما ؟!

لا ! لن يقصّ رؤياه على أحد. وقد تناول قهوة الصباح مع الأسرة كالعادة ، ولكنّه التزم الصمت على غير عادته ، واستمع إلى كلّ منهم يقصّ رؤياه ليفسِّرها هو لنفسه . وظلَّ صامتاً ، شارد الذهن ، مضطرب الفؤاد : « ماذا أقول ؟ وكيف أقصّ على مَسمعٍ من إخوتي تلك الرؤيا المرعبة ؟ بأيّ لسان أصوغ الكلمات التي تعني ، مهما لطَّفتُها ، أنّهم صائرون قبلي إلى ... يا الله ! أيّة كارثة

تحلّ بالأسرة إذا تحقّق هذا المصير القاتم !.. ولكن هل تصحّ الرؤى كلّها ؟ ما بالك تضطرب ! قصّ رؤياك هذه كما يفعل غيرك ، فهي رؤيا ، وستبقى رؤيا !.. إنّها أضغاث أحلام ! وهل أنت نبيّ ؟ إنّك إنسان حقير كسواك ! »

ـ وأنت يا موسى ... ماذا رأيت الليلة البارحة ؟

جاء هذا السؤال ، يلقيه أبوه عليه ، كأنّه النداء الذي أيقظه من ذهوله ... فنظر إلى من حوله ، بعينين لا تصدّقان أنّه جالس بين إخوانه ، في كنف والد يحترمه بقدر ما يحبّه ، ووالدةٍ يرى أنّها المثل الأعلى للوالدات .

ثم حدّق النظر في كلٍّ من إخوانه وأخواته على انفراد : « إنّهم هنا ، لا شكّ في ذلك ، وإنّهم أحياء . فشكراً لك يا ربّ ! لكم أودّ أن أفتدي كلاًّ منهم بروحي ! »

ويعود « موسى » فيحرّك لسانه بين أسنانه ، فيطمئنّ إلى أنّها لم تبرح هي كذلك ثابتة في أماكنها ! إنّها

كانت إذن أضغاثَ أحلام ، وما ينبغي لإنسان متعلّم مثله أن يؤمن بالخرافات .

ويصمت حوار الفتى الداخليّ قليلاً ، ثم يعود إلى التفكير بأنّ رؤياه ليست من الأحلام العاديّة التي يراها الحالمون . إنّها من نوع آخر ، ينفذ إلى أعماق النفس ، ويهزّ جنبات القلب . وما عليه ، ما دام أبوه يلحّ على طلبه ؟ فليباشر سرد رؤياه !

ـ لقد رأيت ... وسقطت أسناني ! وقلت أنت لي ، في المنام ، إنّ معنى ذلك هو ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !

والتفت مرّة ثانية إلى إخوانه فرأى على وجوههم صفرة الموت ! تبّاً للأحلام المزعجة ، وتبّاً لتفسيرها المفجع !

ويقول الوالد من غير أن تبدو عليه آثار الفزع أو التفجُّع :

ـ يا بنيّ اتفل ذاتَ اليمين وذات الشمال . إنّ رؤياك واضحةَ كفلق الصبح . تفسيرها وارد فيها .

وأسأل الله أن يلطف بكم جميعاً !

وقام الوالد وهو يتمتم كلمات لم يتبيَّنها أحد .

★

مضت السنون في إثر السنين . فما كانت الحوادث إلاّ لتحمل إلى «موسى» الدليل تلو الدليل على صدق رؤياه وصحّة تفسيرها ! ربّاه ، ما أشقى الإنسان إذا كشَفْتَ له عن مصيره ! وما أتعس الحياة إذا علمنا مغيَّبات الأقدار !

لقد ماتت أخته الأولى مختنقة بغاز الفحم ، ثم تبعتها أخته الثانية بعد مرض بسيط ، ولكنّه أعجز الأطبّاء . أمّا الثالثة فقد تزوّجت برغم إرادته برجل لم يرَ أنّه كفء لها ، فهجرها إلى الأَبد .

ولم يكن مصير إخوانه خيراً : فقد مات الأوّل بذات الرئة ، وانتحر الثاني إثر إفلاسه في التجارة ، وذهب الثالث ضحيّة الحريق الذي شبّ في المرفإ .

كان ، كلّما فقد عضواً ، يمنّي النفس بأنّ الخير في الباقي ! ويذكر رؤياه ، فيزداد جزعه ، وتتفاقم خشيته من أن تصحّ بكاملها ، فتسودّ الدنيا في عينيه !

حتى كان أمس ، وقد انقضى خمس وعشرون سنة ، فإذا بالبريد يحمل إليه خبراً كان أشأم ما وصل إليه ، وهو في ديار الغربة : لقد تزوّج أخوه الرابع فتاة فاسدة لا تليق ببيته .

فقال وهو يستغفر الله باكياً : « إلهي ! ماذا جنيتُ حتى صدقت رؤياي ؟ »

كنوز لا تنفد

كانت الأسرة مجتمعة حول مائدة الطعام ، كعادتها في كلّ صباح . وإذا « نديم » ، ثالث الأولاد ، يغصّ بلقمة التهمها على عجل ، شأن أمثاله من المراهقين الذين لا يجدون وقتاً لمثل هذه الأمور ! فردّد الوالد ، على مسمع الجميع ، حكمة معروفة في التأنّي ، وذلك للمرّة العشرين ، منذ أسبوع .

وردّ اليافع الجريء ، بعد أن زال العارض ، بسخرية يمتاز بها الأذكياء :

- ولكنّها حكمة فاتت مع زمانها ! فنحن في عصر السرعة .

وانقلبت المائدة ، هذه المرّة أيضاً ، إلى ندوة ، على عادة موائدنا العائليّة في الأُسر الشرقيّة ، يتبادل الحضور

حولها الآراء ، والنكات ، إن لم يتجاذبوا أطراف النقاش الحادّ أو المشادّات .

وتابع الأب ، مسروراً بالفرصة المُتاحة :

ـ صحيح هذا القول ، في القضايا كافّة ، إلاّ القضايا التي تتعلّق بالفطرة . فمَضغ الطعام وهضمه لا يتأثّران بعصر السرعة وقواعده الحديثة !

قالها مشدّداً على كلمة « الحديثة » .

وزادت الأمّ معجبة :

ـ لأنّ الإنسان إنسان ، في كلّ زمان ومكان .

ولكنّ اليافع المتمرّد لا يجد ، مع ذلك ، القناعةَ الكافية ، وقد تعوّد على أن يقول ما يفكّر فيه ، بصراحة وحرّية . فاستدرك على والديه :

ـ حكمتكم تقول : « كُلِ الخيار بقشره ولو كان رطله بمصرّية » ! فكيف ينطبق هذا الكلام على العلم في الكتاب ، وخاصّة علم الجراثيم ؟ قرأتُ أنّه لا يكفي غسل الخضر ، بل يجب سلقها ، أو نزع قشورها ، قبل أكلها !

وهنا ينبري أصغر الإخوة فيقول باتّزان عُرف عنه:

ـ الحكمة تقول أيضاً : « وقشّر التفّاح ولو كان رطله بمئة » !

فيضحك الجميع استحساناً ، ويرتبك « نديم » حادجاً أخاه بعينين عاتبتين ، وهو يشير بيده إشارة الملل ، بينما ينصرف الأب والأمّ ، والأخت والأخ الكبيران ، إلى تعليل المثلين ، ذاكرين أثر الفيتامينات في التغذية . وينهي الأب الجلسة بقوله ، و « نديم » يتهيّأ لمغادرة المائدة على عجل كعادته :

ـ « إبن سينا » قال هذا منذ أكثر من ألف سنة : « في نزع القشور فتح القبور » .

وانصرف الأولاد إلى مدارسهم ، بينما بقي الوالدان يتذاكران في أمر هذا اليافع الذي يبدو أشدّ تبرُّماً من كلّ أخ له ، مرّ بطوره الحاليّ . ويبدو للأمّ أنّ الفتى الذي يضع رجلاً في الصبا ، وأخرى في حدود الشباب ، ذكيّ خارق الذكاء ، بينما يرى الأب فيه صورة للفتى المرهف الإحساس ، الذي كأنّه هو في مثل عمره . ويبدو على وجهيهما أثرُ ما يجول في خاطرهما : هذه يصبغها

الزهو ، وذاك يلوّنه الإشفاق . فالوالد كان أشدّ الناس شقاء بذلك الإحساس المرهف في أدوار حياته جميعها ، منذ نشأ حتى بلغ حدود الشباب في ضفّته الثانية .

وفي يوم العطلة الذي أطلّ ، قامت الأسرة مجتمعةً برحلة إلى البرّية ، تجدّد بها وبتمثيلاتها ، في الحين بعد الحين ، نشاطها للعمل وطاقاتها للإنتاج . فكان يوماً ممتعاً برغم ازدحام الطرقات بالسيّارات ، وامتلاء المرابع والحقول بالمتنزّهين والمتنزّهات . تلك تنشر الدخان الأسود ضباباً يلفّ الجدران والمزروعات ، وهؤلاء ينفخون في الطبيعة الحلوة روح المرح والفتون .

ويقول « نديم » لأخويه ، وهما يلعبان بالكرة المائيّة ، فوق العشب المتاوج كأنّه صفحة بحيرة :

ـ أنتما بطيئان . هاك الطابةَ خذها بسرعة ، وردّها إليّ بسرعة .

ويتحمّس الأخ الكبير فيردّ الطابة وهي طائرة ، بعزم شابّ في العشرين ، وقوّة فتى يتمرّن على الألعاب الرياضيّة . وإذا بها تصيب يد أخيه الصغير ، فيصرخ متألّماً ، ثم تنطح الجدار المقابل لترتدّ نحوَ آلة

حارثة فتقف هناك . و « نديم » يتابعها بعينَي نسر ، تتحرّ كان بأسرع من تنقُّل الطابة ، بين أطراف هـذا المثلَّث الحيّ .

ثم يُغِير الفتى وراءها كالسهم المنطلق . وما هي إلاّ لحظات حتى يقبض « نديم » على الطابة بيديه ، ولكن بعد أن كاد يفقد رأسه من بين كتفيه .

ويلتفت الفتى ليرى إلى مَن حوله ، هل راعهم ما أصابه ؟ فيسارع الأخ الكبير ليأخذ بيد الجريح ويقوده إلى حيث كان الوالدان على مقربة من سيَّارتهما ، ثم يقول مضطرباً :

ـ هل من دواء لهذا الجريح ؟

ويلتفت الأب والأمّ مذهولين !

يا الله ! تكاد رقبة « نديم » تنقصّ ، من ناحيتها اليمنى ، كأنَّ موسى مرّت عليها بضربة من يد حاقدة . والدم ينزف على قميصه فيلوّث ما حول الجرح ، حتى ليبدو العنق وكأنّه رقبة خروف مذبوح .

وتنبري الأمُّ والهةً والأب جازعاً ، يبحثان عن علبة الإسعاف . يا الله ! لقد بقيت العلبة هذه المرَّة في

المنزل ، على خلاف العادة . فتقول الأمّ :

ـ يجب أن نحتفظ بها في السيّارة باستمرار . من كان يفترض أن يعرّض « نديم » رقبته للسكّة الحارثة ؟

ويركض الوالد ، وهو يضغط بيد على جرح ولده ، ويلوّح باليد الأخرى ، نحو أقرب منزل ماهول . فلمّا وصلا إليه لاهثين قال :

ـ عفواً ! أرجو أن أجد عندكم بعض الشيء من المركوروكروم ، الدواء الأحمر ، لهذا الجرح !

فجاء جواب صاحب المزرعة سؤالاً عن ظروف الحادث ، وكيفيّة وقوعه ، والأب يغلي حرصاً على دماء ولده النازفة وسلامته . حتى قال صاحب المنزل ببرودة :

ـ مع الأسف ، ليس لدينا أيّ علاج . إذهبوا إلى المستوصف في القرية المجاورة .

ويلتفت الوالد ، فإذا بصديقٍ خلفه ، قدم مثله إلى هذه المزرعة ، ولكن ليشتري بيضاً طازجاً ولبنة غير مغشوشة . فكان على الوالد أن يشرح أسباب الحادث من جديد ، ويتلقّى من ذلك الصديق اعتذاراً عن عدم حمله موادّ الإسعاف ، هو أيضاً ، في سيّارته .

ويعود الوالد والجريح إلى مقربة من سيّارة الأسرة وأفرادها، والكلّ في غمرة، يتحرّقون على علاج يوقف النزف ويطهّر الجرح، فلا يتعرّض «نديم» إلى مضاعفات خطيرة. وتذكر الأمّ حينئذ فتاةً من رفيقاتها جُرحت مرّة في البرّية، وما عتّمت أن أصابها مرض الكُزاز فذهب بها!

كما يذكر الأب حوادث كانت أشدّ هولاً من الموت، لأنّها انتهت بالتشويه الدائم، كما حدث لابن الجيران الذي أصيب بحذاء سقط على رأسه، فجرحه، ثم أهمل تنظيف الجرح... وكان أن فتك السلُّ بعظامه ونخرها نخراً.

في تلك اللحظة بالذات ذكر الأخ الصغير بعضَ الحكم التي يحفظها، فتذكّر الوالد ما يجب عليه أن يفعل:

- هاتوا ورقة كلينكس وحامضة.

ثم عصر الأب الحامضة على الورقة الناعمة، ومرّ بالسائل على الجرح الذي خفّ نزفه، بعد أن تجمّد الدم على شفاره.

حينئذ تألّم الفتى وصرخ، فأسرعت الأمّ تنفخ على الجرح. تخفيفاً لأثر الحامض الكاوي فيه. فيهدأ «نديم»، وتهدأ أعصاب الأب والأمّ والإخوة. لقد تطهّر الجرح، وتوقّف النزف تماماً. ثم يلتفت الأب إلى ابنه، وقد عاوده ابتسامه المعتاد، فيقول:

- أرأيت فائدة الرجوع إليها، إلى الحِكَم؟

ويضحك الفتى الذكيّ، كما يضحك الآخرون، ويردّد الأخ الصغير الهادىء:

- في التأنّي السلامة، وفي العجلة الندامة!

وتقول الأمّ معجبة بالحكمة وبالأب الحكيم:

- حقّاً إنّ الليمون الحامض ثمر عجيب!

ويتمّم الأخ الكبير:

- أنقذ الملايين من الكوليرا قديماً، وينقذ الملايين الآن بما فيه من فيتامين.

وتقول الأخت الكبرى، كأنّها تكتشف شيئاً جديداً:

- إنّه من ثمار أرضنا، أرض «لبنان» المباركة.

وتقول الأخت الثانية، التي تابعت ما جرى من

غير أن تفوه بكلمة :

- وفوائده من تراث أجدادنا ... وآبائنا الأبرار !

في هذه اللحظة بالذات دمعت عينا « نديم » ، ثم خفض رأسه ، وأقبل على أبيه وأمّه ليقول خجلاً متواضعاً :

- سامحني يا أبي ، سامحيني يا أمّي !

ويقول الأب مزهوّاً ، منبسط الأسارير ، وهو يجلس خلف مقود سيّارته التي تضمّ الأسرة بكاملها :

- حكمتنا يا ولدي كنوز ، إذا ضممتها إلى تجاريبك ضممت تجربة الدهور . وتراثنا كنوز أيضاً ، إذا قدّسته قدّست الإنسانيّة !

ثم انطلق الرجل يزغرد مع الآلة التي أخرست بضجيجها عصافير البستان . فخيّل لمن في داخلها أنّهم يعيشون وحدهم في هذه القطعة من جنان الخيال .

محاولة

ألسوق مدرسة ثانية. بل هي المدرسة الأخيرة لمن مرّ بالمدرسة الأولى، ولمن لم يمرّ. إنّها مدرسة الحياة. ولعلّ الحادثة التالية تكشف لك، كما كشفت لي، عن سرٍّ طالما تُقتُ إلى الكشف عنه، في سلوك الحكّام العادلين، والحكماء المفكّرين، أسلافنا الغابرين!

ألم تسمع بذلك الخليفة الملك الذي كان يطوف، في الليل وفي النهار، في أسواق عاصمته، وأرياف مملكته، متنكّراً حيناً، وغير متنكّر أحياناً؟ وذلك الحكيم الذي كان يطلب الحكمة من هنا وهناك وهنالك، حتى من أفواه المجانين؟ ألم يأتِك خبره منذ «أرسطو» و«أفلاطون» حتى «ابن سينا» و«ابن رشد»؟

أصبحت أفكّر في هذا كلّه ، بعد أن سمعت البائع يقول للقبانيّ :

ـ هذه الصندوقة للخواجا ... هنا !

والتفت القبانيّ إلى البائع ، ثم إليّ ، وقال :

ـ ١٨ كيلو ونصف ...

وقلت بدوري محتجّاً على هذه المؤامرة :

ـ أنا لست خواجا . إنّني مواطن ، من العمّال !

من البديهيّ أن لا تفهم يا صاحبي ما أريد أن أنقله إليك . فلنبدأ سرد القصّة من جديد :

إنّني من أرباب العائلات الوفيرة العدد . والباعة عندنا طمّاعون لا يكتفون بربح معقول ، فلا بدّ من السعي لتوفير بعض المال من هنا ، والاستغناء عن بعض النفقات من هناك ، تأميناً لحياة هؤلاء الصغار ، وأجور تعليمهم ، وثمن كسوتهم . وإلاّ فإنّ المنحدر الذي انزلق عليه الكثيرون من أرباب الدخل المحدود قائم تحت أقدام كلّ مسرف لا يقنّن نفقاته ، أو يمدّ رجليه أكثر من قدر بساطه .

وقد اكتشفت ، بعد طول الاختبار ، أنّ أسعار

البيع في الدكاكين تفوق أسعار الشراء بالجملة من الأسواق، بنسبة الضعفين أو تزيد. فالمسالة، كما يبدو، مسألة حسابيّة: إذا اشتريت مونتك اليوميّة من الخضرة والفاكهة من دكّان الحيّ المجاور، اقتضاك ذلك نصف دخلك الشهريّ. امّا إذا اشتريت الكميّة نفسها من المنتجين رأساً، في الأسواق، فإنّ ربع دخلك يكفيك. ويبقى الربع الآخر، فتدفعه ثمناً «للعلم» الذي أصبح بائعوه يطمعون في أموالك مثل طمع البيّاعين الآخرين.

وهكذا عمدت منذ هذا الصيف إلى اصطحاب ولدي الكبير إلى السوق، حيث يعرض المنتجون خضرهم وفواكههم بأرخص الأسعار. ومع ذلك علّمتني الخبرة أنّ المساومة لا بدّ منها، حتى لو أقسم أحدهم على أنّه يطلب منك السعر الأخير.

وكان لتلك المواقف التي وقفتها من الباعة مساوماً، ووقفها الباعة منّي مداورين، أثر في نفس ولدي، لا أدري إذا كان سيزعزع عقائده في الصدق، والإيمانِ بطيبة الفطرة وطهارة النفس، أم أنّها كانت تربية

واقعيّة أفاد منها دروساً دفعتُ أنا قبل ذلك ثمنها غالياً .
فلطالما وقفت ، منذ أصبحت مسؤولاً عن نفسي ، حائراً بين تصديقِ ما قاله المربّون لي أو قرأتـــه في الكتب ، وبين الواقع الذي يصفع تلك الأقوال والآراء صفعـــاً موجعاً في كلّ لحظة !

والمهمّ عندي كان أن أوفّر بعض المال ، في وقتٍ اشتدّ فيه الغلاء ، وضاقت أبواب الرزق الحلال ، بعكس الأبواب الأخرى التي تتّسع يوماً بعد يوم ، فيدخلهـــا العشرات ، ثم يصبحـــون ، أو يمسون ، وإذا هم من أصحاب الملايين !

وأقول لولدي المعجَب بالقصور التي شادها أولئـك المليونيّون ، وبالسيّارات الفخمة التي تربض عند مداخل داراتهم ،وبمظاهر البذخ التي تبهر العيون :

ـ ألمال ... لا سبيل إلى جمعه إلاّ عن طريقين : الشحّ ، والحرام !

ويسأل ولدي الذي يضع رجلاً في حدود الصبا وأخرى في حدود الشباب :

ـ ونحن ، أين نحن من هذا وذاك ؟

ـ نسير على الطريق الثالثة : إنّها أسلم الطرق ، لأنّها الطريق الشريفة !

ـ طريق الاقتصاد . صحيح ! ولكن ، اسمحْ لي أن أقول إنّنا لن نعرف الغنى في حياتنا !

ـ تقصد الثروة !؟

ـ بالطبع !

ـ ألغنى هو ما نحن فيه ، أي الاستغناء عن الحاجة إلى الناس ! أمّا الثروة فتلك قضيّة أخرى ، لعلّك أنت وإخوانك ستحقّقونها !

وسمعت ولدي يتمتم بكلمات تبيّنت منها :

ـ إبن المكاري يصبح « مليونيّاً » ، وابن المليونيّ يعود مكارياً مثل جدّه!

فقلت له :

ـ هذا هو ناموس الحياة ... قوم يصعدون ، وآخرون يهبطون !

عند هذا وصلنا إلى السوق ، فانقطع حديثنا الذي أحبّ أن يتّصل بيني وبين ولدي ، لا لما يقوم بيننا من إخلاص ومحبّة متبادلة ندرا كلاهما بين الناس ، بل

لأنني أريد أن أنقل إلى ولدي خبرتي كاملةً ، فلا يشقى بقدر ما شقيت وأنا أجوب دروب الحياة وحيداً ، أو كالوحيد .

في السوق وجدنا صندوقة تفّاح . والتفّاح في تلك السنة من أرخص الفواكه ، بل إنّه أرخص من كثير من الخضرة الموسميّة . وقد عُدَّ ذلك من نِعَم الأزمة على الفقراء الذين حُرموا التمتّع بهذه الفاكهة اللذيذة في السنين الماضية ، لغلاء أثمانها !

ـ بكم التفّاح يا عمّ ؟

سألت المنتج البائع ، وكان رجلاً تدلّ مظاهره على التُّقى والصدق . فنظر إليّ بعينين تعوّدتا سبر أغوار المشترين ، وتقويم منزلتهم الاجتماعيّة من خلال ثيابهم وأحذيتهم !

وقلت متابعاً :

ـ ألسعر الأخير . فالمساومة مضيعة للوقت .

وأجاب البائع بوثوق وحزم :

ـ ٣٥ قرشاً !

ـ ولكنّ المساومة حملته على خفض الثمن إلى ثلاثين.

فاشتريت منه بهذا السعر ، وأنا مطمئنّ إلى أنَّ وجود هذا البائع الصادق اللهجة ، بالنسبة إلى زملائـــه ،يقوم دليلاً على بطلان ما اعتقدته فيه ، كما يقوم كلّ شاذّ برهاناً على صحّـة القاعدة الأساسيَّـة !

ونادى البائع على القبَّـاني ، فأقبل هذا العامل البلديّ يحمل قبَّـانه بين يديه ، ويتبعه صبيّ يرافقه وهو يحمل سلّـة تمتلىء بالفواكه تدريجيّـاً !

حينئذٍ مدَّ البائع يده إلى الصندوقة فاختار تفّـاحتين وضعهما في تلك السلّـة ، ثم ساعد على رفع البضاعـة عن الأرض كي توزن بالقبّـان !

ومددت عنقي صوب قضيب القبّـان ، أراقب حركة البيضة ، والأرقام التي ستهدأ عندها .

في هـــذه اللحظة ، وقبل أن يعلن القبانيُّ الوزن الصحيح ، سمعت البائع يقول له بلهجة دالّـة :

ـ ألصندوقة للخواجا ... هنا !

ويلتفت القبانيُّ إليَّ ، ثم يقول من غير تردّد :

ـ ١٨ ونصف !

وأقول محتجّـاً :

ـ أنا لست خواجا ... إنّني مواطن من العمّال !

قلتها ، وخيّل إليّ أنّ وجه البائع قد اصطبغ بحمرة عارضة ! ثم التفت إلى القبانيّ وقد خطا خطوته الأولى كي ينصرف إلى وزنة أخرى ... وسألته بعينين متنبّهتين ، فأجاب وهو يؤكّد ما يقوله بهزّة من رأسه، و« تذبيلة » من عينيه :

ـ ١٨ ونصف !

وعبثاً حاول البيّاع أن يفسّر لي كلامه المريب :

ـ قصدت ... ما قصدت شيئاً ... سوى أنّ بعض المشترين لا يثقون بالقبّان إلاّ إذا كانوا حاضرين !

فقد سبق إلى اعتقادي أنّه حاول التواطؤ مع القبانيّ على سرقتي . فالوزنة التي تبلغ فعلاً عشرين كيلو ، مثلاً ، تعلَن اثنتين وعشرين للخواجا ، وتعلَن على حقيقتها للشارين الآخرين . والخواجا هو كلُّ غريب عن المنطقة .

ـ هذا هو التفسير المقبول . وإلاّ فما معنى إعلان البائع ذلك في تلك اللحظة بالذات ؟ وما فائدة القبانيّ من معرفة منزلة هذا الشاري أو ذاك إذا لم يكن الأمر

بقصد التواطؤ !

بهذه الكلمات أنهى ولدي تفكيره في ما رأى وسمع ، وهو يحدّثني في طريق العودة ، فأدركت ـ مع الأسف الشديد ـ أنّ كثيراً من الدروس التي يتلقّاها في السوق لا تزيده إلاّ كفراً بالناس ، وبالقيم المثلى في الحياة .

وأدركت ، على الفور ، سرّاً طالما حاولت الكشف عنه . لقد عرفت اليوم لماذا يسأم العقلاء في بلادي أولئك الناس وهذه الحياة في سنّ مبكرة ، فينطوون على أنفسهم ويقعدون ، في حين يزدادون في البلاد الأخرى حبّاً بالناس كلّما تقدّمت بهم السنُّ ، فيتابعون التعاون معهم وهم يعملون وينتجون .

وأدركت كذلك سرّاً من أسرار حياة الأمم وازدهار الأوطان ، وقلت لولدي :

ـ طبعاً ... لن تكون أنت وجيلك من أهل هذه العقليّة النفعيّة . آباؤنا الأوّلون علّموا البشريّة الأمانة ، ونشروا في الأرض روح العدالة !

معلّمي الأوّل

كان ذلك عام ١٩٣٥ . وكنتُ ناشئاً أطمح إلى تعلّم كلّ شيء . وكنت ، شأن سائر الناشئين ، لا أشعر بأنّي مسؤول عن شيء : فالحيــــاة لهوٌ وعبَث ، والأيّام شباب وانطلاق ! ألسنا من جيلٍ ما بعد الحرب الأولى ، الذين صحَوا من ويلاتها على وقع الحوادث تُعِدُّ الحرب الثانية ؟ فعلامَ نهتمّ لأمر ، بعد أن ذقنا الأمرّين ، بل كلّ مرٍّ في الحياة ؟

وكنتُ بين رفقائي أصغرَهم سنّاً ، ولكنّني كنت أكبرَهم إرادة . فامتنعتُ عن التدخين ، هذه الآفة التي أصبتُ بها منذ حداثة سنّي . وكان امتناعي عنه جواباً عن تحدٍّ من كبير أولئك الرفقاء ، وقد قال يوماً ساخراً متهكّماً :

ـ أنتم ، شباب هذا الزمان ، جُبلتم من الميوعـــة ، وانسقتم مع أهوائكم إلى المنحدر ! أين إرادة الرجال فيكم فتأخذوا بزمام نفوسكم ، ولا تقعوا في الهاوية ، وبئس المستقَرّ ؟

وكان كبيرنا هذا ، يرحمه الله ، رجلاً عملاقاً ، قويّ الشخصيّة ، عظيم المَهابة . ويشهد الله أنّني ما علمت عليه من سوء . وكان إيمانه بقوّة النظام والتنظيم مطلقاً ، بحيث كان لا يُغادر منزله في الصباح قبل أن يضع لنفسه برنامج العمل في يومه ، من خطّة الذهاب حتى خطّة الرجوع .

فقلت له ، وشاركني في ذلك رفيق آخر :

ـ أنت تتحدّانا . فبماذا تريد أن نجيب ، كي نثبت لك أنّ بين الشبّان أيضاً رجالاً ؟

ـ أتركوا التدخين إذا كنتم حقّاً من الرجال .

ـ وهو كذلك . سنتركه منذ الآن .

وأخرجت على الفور علبة سجايري وألقيت بها من النافذة ، كما فعل رفيقي الآخر . وقال كبيرنا :

ـ وأيّة ضمانة تضعان تأميناً على هذا العهد ؟

فامسك رفيقي بشاربيه الحليقين مازحاً ! وقلت :

ـ إنّ الرجال يرتبطون بألسنتهم ! فإذا شئتَ غير ذلك ، اقترح ونحن معك !

وكان بعد ذلك جَدلٌ اشتركنا فيه ، نحن الثلاثة ، وسائر الرفقاء يستمعون إلى هؤلاء « المجانين » الذين يندر وجودهم يوماً بعد يوم في « المدينة » ، الغارقة في الترف والفساد . وقد انتهى الجدال إلى قول أحدنا :

ـ أنا أقترح ، إذا نكث واحد منّا بالعهد ، أن يدعو الآخرين إلى وليمة « صدر كنافة » ، فما تقولون ؟

وارتفع ضجيج الموافقة وسط تصفيق الاستحسان . . .

في اليوم التالي بدأ صراعي الهائل ضدّ تلك العادة التي تأصّلت في الناشىء ، منذ حداثة سنّه ، حتى أدرك سنّ الشباب : عشرة أعوام عبَبْتُ فيها الدخان ، وكأنّني أعبّ إكسير الحياة . فما أشقّ ذلك الصراعَ ، بعد أن صار ذاك السمّ جزءاً من كياني ، يتطلّبه دمي تطلُّبه الماء !

ورحت أعدّ الساعات ، وعدد السيجارات التي « فاتني » تدخينها . فقد كنت أحرق ، في كلّ ساعة من ساعات اليقظة ، خمس لفافات ! كما كنت ، كسائر

المدخّنين ، أؤجّل موعد النوم ، كي لا تفوتني تلك « اللذّة » المحرقة ، والناس نيام . ففي الاستئثار باللذائذ لذّة ثانية ، تدغدغ أنانيّة الإنسان .

بل ما كان أشقاني إذا لم أدخّن ، قبل أن أغمض عينيّ ، ولو سيجارة واحدة هي زاد الليل للأحلام .

في الطريق ، وفي النزهة ، في القطار ، وفي كلّ مكان ، حتى الحمّام ، كان لا بدّ من تلك الرفيقة ، التي تستحلب شفتيك مرارةً ، وتنفث في دمك السموم !

أمّا اليوم ، فكيف أستطيع أن أعيش بعيداً عن ذاك الجليس الأنيس ؟ بل كيف أستطيع أن أفكّر ، أو أن أكتب ، إذا لم تكن « هي » بين أصابعي ، أداعبها ، وتحرق نارها أناملي ؟

ولكنّ ما يريده الإنسان يريده الله . هكذا يقول « نابوليون » عن المرأة . فلماذا لا يصحّ قوله على كلّ إنسان ؟

ـ تجلّد يا فتى ! تجلّد !.. هذا يوم انقضى أو كاد . وغدٌ مثله يوم ثانٍ سينقضي ... والذي بعده يوم ثالث ... فاسبوع ، وشهر ، وسنة ... ألم يقل الطبيب

إنّ مدّة سنة ونصف السنة كافية لتطهير دمك من السمّ ، سمّ النيكوتين ! لقد انقضى يوم واحـــد ... ولم يبق عليك إلاّ ...

★

زرت رفيقي « المجاهد » مثلي ... فوجدته على أسوإ حال من الضجر ، والتوتّر العصبيّ . فحمدتُ الله على ما يسّر لي من الصبر والجلَد . فقد انقضى يومي بكامله من غير أن أكسر « مزهريّة » ، أو أضرب أخي الذي لا يُطاق ، حتى في الأوقات العاديّة ! وقـــال الرفيق « الصابر » غصباً عنه :

ـ تريد الصحيح ؟ أنا مستعدّ منذ الآن أن أدعوكم إلى وليمة ... « الكنافة » !

ثم أقبل على خزانة، كان يُخفي فيها أشياءه الخاصّة ، وأخرج منها علبة سجاير جديـــدة . وتناول منها ، بيد ترتجف ، واحدةً ... ثم أشعلها ، وكأنّه مُختنق استروح الهواء النقيّ . وقال :

ـ آه ... « شحطة » واحدة تساوي صدر كنافة !

خذ واضحك على لحية « معلّمنا خليل » !

وضحكت ... ولكن في وجه هـذا « الفارّ » من ساحة الجهاد ، لا من « المعلّم خليل » ، الذي كان معلّمي الأوّل في الرجولة .

*

ومضت الأيّام ، والشهور ، حتى استوفيتُ عدّة السنة ونصف السنة : فتطهّر دمي ، حقّاً ، من ذلك الداء ... « ومعلّمي » ذاك أشدّ سروراً منّي ، كلّ يوم ، في ثباتي وحيداً في ذلـك المَيدان ، الذي يعزّ فيه المجاهدون ، ويتخاذل الرجال .

ولقد جاء الأستاذ « خليل » ، يرحمه الله ، ذات يوم ، وعلى وجهه آثار كآبة ، وفي عينيه ، في بياضهما المُشرَب بحمرة السهر والوَحدة ، صفرة مخيفة :

ـ حان لي أن أهنّيك ... ولكم وددتُ أن يكون صاحبنا « الفارّ » في مستوى المنصب الذي يحتلّه اليوم ، فيكون « رجلاً » أوّلاً ، يدبّر شؤونه الخاصّة ، قبل أن يكون مدبّراً لشؤون غيره ! ألمعرفة هي السلوك ، ولا

قيمة لها إذا لم تكن كذلك !

وافترقنا . فقد دعاني أبي إلى « أفريقيا » حيث هاجر منذ سنوات . وبقي رفقائي هنا ، جميع رفقائي . فكان ألم الفراق مضاعفاً في نفسي ، وكذلك الحنين : فالديار ومن فيها ، كلاهمـــا يأسر القلب ، ويشدّه برباط لا ينحلّ أبداً . فلمّا عدتُ بعد الحرب العالميّـة الثانية ، كان أوّل عمـل قمتُ بـــه زيارة « الأستاذ خليل » ، ولكن في قبره ... فقد مات في جملة من استُشهدوا في سبيل كرامة البـلاد .

حتى الرمق الأخير

كان رئيس البلديّة، في تلك السنة، رجل عمل وإنتاج. وكان إنساناً ناجحاً في حياته الخاصّة قبل أن ينتخبه الناس رئيساً لمجلس البلديّة الذي طالما حمّله الشعب المسؤوليّة عن قذارة بلدتهم.

لذلك قرّر الرئيس الجديد أن يجعل من هذه البلدة عروس المدن في البلاد، ولو اقتضاه ذلك السهر في الليل، وإنفاق الأموال من جيبه الخاصّ.

جلس الرئيس خلف مكتبه يعرض التدابير التي طبّقها أسلافه لتنظيف البلدة: شوارعها، وأزقّتها، وشواطئها، ومداخلها الكثيرة، وجدران منازلها. ثم ذكر الوسائل المتنوّعة التي استُعملت لجمع النفايات، والتخلّص من القاذورات اليوميّة:

الصناديق فوق الأرض ، ثم في زوايا الشوارع ، أو في أطراف الأزقّة ... جميعها لم تحمل الناس على إلقاء أقذارهم فيها . فما العمل ؟ ثم هذه الأوراق ، وفضلات الطعام والفواكه والخضر ، المنتشرة في كلّ مكان ، يكنسها الكنّاسون صباحاً وظهراً ، فتعود إلى التراكم بعد الظهر . ويجمعها الزبّالون مساء ، فتعود إلى الظهور قبل الضوء . ما الحيلة ، وكيف نحمل الناس على الإيمان بالنظافة ؟

قال الرئيس هذه الجملة الأخيرة ، فتداعت إلى ذهنه حِكَم الأوّلين والآخرين حول النظافة . وقد أعجبه منها قولُ الحكيم القديم : « النظافة من الإيمان » ! وقال لنفسه ، ثم لزوجته حينما اجتمعا :

ـ وجدتها ! سأصنع من هذه الحكمة مئات اللوحات ، وأحمل الشرطة والموظّفين الإداريّين على تعليقها في كلّ مكان ، في كلّ زاوية من الشوارع والأزقّة والحدائق . إنّها رائعة في مدلولها وفي اقتضاب كلماتها : كلمتان ، بل ثلاث ، تؤدي معنى كتاب ضخم في علم الصحّة !

وأصبح الناس ذات يوم ، فإذا شوارع المدينة ،

وساحاتها، وأزقتها، وحدائقها، وشواطئها، تتزيّن بتلك اللوحات التي كتبها أشهر الخطّاطين، فكان المارّة يقفون عند كلّ لوحة أو لافتة يقرأونها، أو ينتقدون بعض حروفها:

ـ حقيقة جميلة. ولكنّ «النون» الأولى قصيرة. وربّما «الظاء» أطول من «اللازم».

ـ بل أرى أنا «النون» الثانية ممدودة أكثر من اللازم. هذا الخطّاط لا ذوق عنده. لو كتبها «المسحّراتي» بدلاً من «المخلّلاتي» لكان خطّه أوضح.

وأحاديث أخرى كثيرة كان الناس يتبادلونها، وهم يمرّون، يقشّرون الفول السودانيّ، أو البزر المحمّص، أو الموز، ويلقون بفضلات ذلك كلّه على الطريق العامّ!

واعتقد الرئيس أنّ «قِدَم» هذه الحكمة ربّما كان حائلاً بين الناس وبين تطبيقها. فهم قد ألِفوها، فلم يبقَ لها في نفوسهم سحرُ الجديد المستحدَث. وغير ذلك، فهم، بعد حربين عالميّتين ساحقتين، قد فقد أكثرهم ذلك الإيمان الذي لم يَحُل بين أصحابه وبين أن يتذابحوا ويُفني بعضهم بعضاً.

ويقول الرئيس لمستشاره القانونيّ :

- قرّرت أن أكتب هذه الجملة الحكيمة ، بعد « تجديدها » ، على العلب نفسها المعلّقة على الأعمدة لتلقّي الأقذار والفضلات . فإنّ العين تتعب في تنقلها من اللوحة أو اللافتة إلى المكان المخصّص للأقذار . فما رأيك ؟

ويعجب المستشار بسداد رأي رئيسه ،فيوافق ،على جاري عادته ، على النصّ الجديد ، والأسلوب الجديد ، بلا تحفّظ . إلاّ أنّه يرى :

- لو جعلنا الكتابة بلون أحمر بدلاً من الأبيض ، ألا يكون ذلك أشدّ إثارة لاهتمام القرّاء وانتباههم يا سيّدي الرئيس ؟

فيزداد الرئيس إعجاباً بحضور ذهن مستشاره وإخلاصه في النصيحة !

وتستفيق المدينة ، بعد أيّام ، لترى علب القاذورات ، المنشورة على الأعمدة ، قد دُهنت بالأبيض ، وزانها بالأحمر هذا القولُ الجديد - القديم : « النظافة أساس الحضارة ! »

وأقبلت جموع المارّة تتوقّف عند كلّ عمود، لتقرأ هذا الكلام الجميل المكتوب بخطّ جميل، لم يوقّعه الخطّاط كعادته، لأنّه، كما ظهر فيما بعد، خطّاط ناشىء. وكان أشدّهم تحمّساً لهذه الكلمات أبناء الجيل الجديد وبناته: المراهقون والمراهقات، الذين يجنّون بكلّ حديث، غريب، مستطرَف. فيقول شابّ منهم، يرتدي البنطلون «الكاوبوي»، لفتاة ترتدي البنطلون «الإيطاليّ» الضيّق:

ـ هذه حكمة جميلة. إنّها من «أحدث» كلمات «سارتر».

وتجيب الفتاة من غير تحفّظ:

ـ يا مسكين! أنت لا تميّز بين كلام «سارتر» وقصص «همنغواي».

وتملأ المدينةَ تعليقاتُ الآخرين، لأنّها انتقلت من أفواههم إلى صفحات الصحف وألسنة الظرفاء، في النوادي والمسابح البحريّة.

وبرغم ذلك كلّه ظلّت الأقذار تُلقى في الشوارع، وخاصّة حول العلب المعلّقة لتلقّيها في الشوارع

الرئيسة ، وفي الحدائق العامّـة .

حينئذ بدا للمستشار القانونيّ أنّ اللون الأحمر هو المسؤول عن ذلك الإهمـــال ، فأكثرُ الناس في المدينة لا يميلون إلى هذا اللون ، وخاصّة كبار الملاّكين والمُـثرين ، وأصحاب الملايين من المواطنين والأغراب . فلا غنى عن تبديل الكتابة لتغيير لونها ! ويقول للرئيس ، في أثناء الجلسة العامّة التي عقدها المجلس البلديّ :

ـ بكلّ تواضع : أحبّ أنْ ألفت اهتمام الرئاسة والمجلس الكريم إلى قضيّـة أخرى هي في مثل خطورة اللون ، وهي نوع الخطّ . فالخطّ الفارسيّ الذي كتبت به اللوحات واللافتات غير شائع في بلادنا ، ولاسيّـما بعد انقضاء العهـــد العثمانيّ الذي كان يراعي عواطف العناصر المختلفة التي تكتب لغاتها بالخطّ العربيّ .

وهنا علت أصوات الاحتجاج من بعض الأعضاء على النفقات التي تذهب سدى في كتـــابة اللوحات اليوم ، لإبدالها بسواها غـــداً . إلاّ أنّ الرئيس أمسك بزمام الموقف وقال :

ـ إنّ مستشارنا القانونيّ لم يخطىء مرّة ، منـــذ

تولّينا هذه السُّدّة . ولمّا كان ، في هذه الناحية ، هو المرجع المختصّ ، فإنّني أثنّي على هذا الرأي وأطرحه للتصويت .

وقد قُبل الاقتراح بالإجماع . وبوشر منذ صباح اليوم التالي دهن اللوحات من جديد لإعادة كتابتها باللون الأخضر !

وبعد أيّام كتبت بلون آخر ، ارتآه المستشار القانونيّ بالاتّفاق مع رئيس المحاسبة البلديّ ، لأنّ اللون الأخضر لا يميّزه الناس بصراحة عن بعد ، وهو لون شائع في الشجر ، وفي فضلات الخضر الملقاة في كلّ مكان !

وأخيراً استقرّ الرأي نهائيًّا على إبدال اللوحات واللافتات المعلّقة فوق العلب والسلال الحمراء ، بالكتابة على السلال والعلب ذاتها ، توفيراً للجهد الذي يبذله بصر القارىء في التنقّل من فوق إلى تحت ، على أن تكون تلك العلب باللون الأسود ، والكتابة باللون الأبيض !

وفي نهاية الأسبوع كانت الأيدي الوسخة ، ودخان السيّارات ، قد غطّت تلك الكتابات بستارٍ حجبها عن

الأبصار ، فضاعت العلب والسلال ، ثم فقد أكثرها من مواضعه . فكانت جلسة المجلس البلديّ الختاميّة ، في دورته العاديّة ، لمحاسبة الرئيس وأعوانه حساباً عسيراً .

وعلا صوت أحد الأعضاء مزمجراً :

- تنفقون على علب الأقذار ، والكتابة عليها أو حولها ، مئة ألف ليرة ، ثم تطلبون منّا أن نصدّق على قطع الموازنة ؟ هذا كثير يا سعادة الرئيس . وأموال الشعب ليست وقفاً على مثل هذه الأعمال ، أو نهباً مقسّماً بين الأزلام والأنصار .

ويعقب ذلك ضجيجٌ ، وضرب على الطاولات والأرض بالأيدي والأرجل ، ويُسمع خلال ذلك هدير المستنكرين والعاتبين . حتى أخذ الرئيس الكلام بهدوء الواثق من نفسه ، وقال :

- إنّني أعدكم ، إذا جدّدتم لي الرئاسة للسنة القادمة ، بأن أطبّق برنامجاً يستأصل القذارة من جذورها ، بأرخص نفقة وأقلّ تعب .

هنا ضجّ المكان بتصفيق الموالين للرئيس ، فتابعهم المعارضون ، وانتهت الجلسة بتجديـــد الثقة برئيس البلديّة ، لكي يفسحوا له مجال العمل ، على أن يحاسبوه في نهاية السنة القادمة .

وانصرف الرئيس الجديد « القديم » إلى وضع الخطط والتصاميم ، بالاستناد إلى آراء مستشاريه وسواهم من العارفين بأمور البلديّة ، والبلد ، والشعب ، وعاداتـــه وتقاليده . ويقول المستشار القانونيّ :

– يا سيّدي الرئيس ، قوانيننا أحدث القوانين ، وأنظمتنا أرقى النظم المعمول بها في البلاد المتحضّرة ، من « أوروبا » حتى « أميركا » ... ونحن ساهرون على اقتباس أيّ نظام أو قانون يصدر لنقله إلى لغتنا ونشره في الجريدة الرسميّة .

فتنبسط أسارير الرئيس الذي يؤمن بقدرة مستشاريه وسلطان الحرف المكتوب . ويقول مازحاً :

– هذا صحيح . ولكن ، ماذا نفّذنا منها ؟

فتحمرّ وجنتا المستشار الشاحبتان ، ويقول بحماسة :

– ألا ترى سعادتك آلاف « محاضر الضبط » تنظّمها

الشرطة بالمخالفين ؟

ويتابع الرئيس مباسطاً ، وهو سادر :

ـ وما فائدة ذلك كلّه بالنتيجة يا ترى ؟

ثم بعد لحظة صمت ، يقول الرئيس :

ـ وجدت طريقة ربّما كانت مثمرة .

ويهمس في أذن مستشاره كلمات ، فيقابل المستشار حركة سيّده بهزّ الرأس علامة الموافقة ، وهو مدهوش . ثم يسارع فيحضر مجموعة القوانين ، ليفتح إحدى الصفحات ويدلّ على ما فيها ، وهو يبتسم أعرض ابتسامة. فيقول الرئيس :

ـ حسناً ، سأسهر بنفسي على تنفيذ ذلك ، منذ الغد .

★

واستيقظت المدينة في صباح عيد الاستقلال ، لترى كلّ شيء جميلاً كالاستقلال : فالطرقات مفروشة بالرمل الأحمر ، والشرفات مزيّنة بالأعلام الوطنيّة ، وفاقاً للعادة المتّبعة منذ سنين . ولكنّ شيئاً جديداً واحداً لفت الاهتمام أكثر من تلك المظاهر كافّة ، هو إعلان كانت تردّده مكبّرات الصوت المنصوبة في كلّ مكان :

ـ المرجوّ من صاحب صندوقة البريد رقم ٥٧٨٤ أن

يحضر إلى المجلس البلديّ حالاً لتسلّم الجائزة الكبرى التي استحقّها .

وتساءل الناس ، وتعجّبوا طويلاً :

- ولماذا هذه الجائزة لصاحب صندوقة البريد رقم ٥٧٨٤ ؟ وكيف استحقّها من غير أن يعرفه المجلس البلديّ ؟ وهل صار المجلس البلديّ يعطي الجوائز لأشخاص مجهولين ؟

ودام اهتمام الناس على أشدّه حتى الظهر ، فإنّ أجهزة الإذاعة اشتركت مع أجهزة البلديّة في إثارة الناس ، وتنبيه أذهانهم . وفي الساعة الثانية عشرة تماماً دقّت أجراس الظهر ، وعلت أصوات المؤذّنين فلمّا هدأت سمع الناس ، في أعقابها ، صوتاً يعلو من الأجهزة المذيعة ، هادئاً برغم قوّته ، رصيناً برغم مرحه ، يقول :

ـ آلو ! آلو !هنا المجلس البلديّ . لقد منحت الجائزة الكبرى لهذا الأسبوع إلى صاحب الصندوقة البريديّة رقم ٥٧٨٤ ، لأنّه ألقى بقصاصات الورق والمغلّفات ، وهو خارج من دار البريد ، في سلّة المهملات المعلّقة عند تلك الدار . وقد اتّخذنا قراراً بمنح جائزة مماثلة لكلّ من يلقي

تلك القصاصات في العلب والسلال المعدّة لها !

وكان ختام هذا الحديث فرصةً لمرح وصخب عمّا المدينـــة في الشوارع والبيوت ، حتى طغت الضحكات المتعالية ، من كلّ جانب ، على هـدير القطار ، وأبواق السيّارات .

وأقبل الناس بعد ذلك بالعشرات يلقون في العلب والسلال بقصاصات من الورق تحمل أرقام صناديق البريد ، أو أسماءهم .

ولمّا اجتمع المجلس البلديّ تلا المستشار على مسامع الأعضاء خلاصة التقارير الواردة إلى الرئاسة ، فإذا بها تلاحظ جميعها أنّ محالّ الضاربين على الآلة الكاتبـــة وحدها هي التي ازدحمت بطلاّب القصاصات المطبوعة ، وأنّ الحالة حول العلب والسلال لم تتبدّل ! فلا جديد على تلك الجبهة !..

ولكنّ الرئيس البلديّ لم ييأس ، فإنّ لكلّ داء دواء عنده . وقال :

ـ لن ألقي سلاحي ... حتى الرمق الأخير !

مِن أجْل جلدة ممزّقة

خرس زمّور سيّارته فجأة، وكان عائداً من زيارة صديق يصطاف في ضهور القرية. فتوقّف ليرى سبب ذلك الخرس: أهو احتراق أحد الموصلات في علبة الكهرباء، أم نفاد الخزّان الكهربائيّ الذي لم يمضِ أكثر من سنة على استعماله؟

ولمّا تأكّد من أنّ ذلك الخرس غير ناتج عن أحد هذين العاملين، تابع سيره، حذِراً فوق عادته، وإن كان لا يستعمل الزّمور إلاّ في الضرورة القصوى.

وعند أوّل منعطف توقّف ليتأكّد من خلوّ الطريق من صبيّ يقطعها وثباً بلا انتباه، أو من سيّارة أخرى تنطلق كأنّ الطريق لها وحدها، بلا اهتمام بالنتائج. وإذا ثمّة محطّة بنزين جديدة، فرأى أن يستهدي بخبرة

عمّالها . ليجد عاملاً كهربائيّاً ، في الجوار ، يصلح ذلك الخلل . وكان يعلم أنّ عمّال المحطّات لا يهتمّون إلاّ بمن يشتري أو بمن يكرمهم ، فملأ خزّان سيّارته ، وسأل :

ـ هل من عامل كهربائيّ بجواركم ؟

ـ والله لا أعرف ...

قالها غلام المحطّة ، وهو ينتظر تناول الإكراميّة ، فضلاً عن ثمن البنزين . إلاّ أنّ الفتى لم يعطِه شيئاً فوق حقّه . وتابع سيره البطيء حتى التقى ، بعد أمتار معدودة ، بشرطيّ بلديّ ينظّم السير ، في ساحة المصيف الكبير ، ويتحدّث مع سائقي السيّارات العموميّة حديث الأصحاب والزملاء ، ويمازح هذا وذاك ممّن يعبرون الشارع . وهو يصفّر تارة ويصرخ تارة أخرى ، في آن معاً .

ـ أسعدت صباحاً يا أفندي !.. هل من كهربائيّ قريب هنا ؟

وسارع الشرطيّ ، بتهذيب ورقّة ، إلى دلالة الفتى على دكّان الكهربائيّ المجاور ، والقائم إلى يمين مسرب الطريق الآخر ، وقال :

ـ دُر حول هذا المسرب بعد الزريعات ، وقف عند

طرفه تجد الكهربائيّ إلى يمينك !

وانصرف الفتى ، والشرطيّ يتابعه بعينيه ، حتى وقف عند باب الدكّان المقصود . وإذا بالشرطيّ ينادي العامل الكهربائيّ مشيراً إلى السيّارة وصاحبها ، إنّه يسلّمه « الزبون » يداً بيد ! ثم يقبل العامل ، ويصغي إلى شرح الفتى وما يشكوه من عطل ...

وما هي إلاّ لحظات بحث العامل فيها عن علبة الكهرباء ، وتثبّت ممّا قاله الفتى عن سلامة الموصلات ، حتى انحنى ، ولمس بيده شريطاً تحت خزّان الماء ، فصرخ الزمّور صرخته العاديّة ! ثم قال وهو يصلح العطل :

– إنّه لم يكن في علبة الموصلات كما قلت يا أستاذ ! بل هنا !

وأكمل الفتى مؤكّداً لنفسه سابق علمه :

– ألشريط مقطوع حقّاً . أحسست بشيء ينفلت حينما لففت المقود ، عند الكوع الكبير ...

ونقد الفتى العامل نصف ليرة ، إلاّ أنّ العامل طلب ليرة كاملة بلهجة لا تترك مجالاً للمساومة . فدفع الفتى إليه

بما طلب ، لأنّ العمّال في المصايف يحسبون كلّ مصطاف مليونيراً ، ولا سبيل إلى إقناعهم بالعكس .

وهكذا استأنف صاحبنا سيره باتّجاه المدينة ، عائداً من زيارة كلّفته حتى الآن ثماني ليرات ، بما فيه ثمن البنزين .

إلاّ أنّ الزمّور ، ولم يمضِ إلاّ دقيقتان على إصلاحه ، جُنَّ هذه المرّة ، وأخذ يزعق كهارب من حيّة !

فنزل الفتى من وراء المقود ، وأقبل الجيران ، كلٌّ يستعدّ لإصلاح الخلل ، أو ، على الأقلّ ، للإشارة بما يلزم في سبيل إخماد نفس ذلك المجنون .

والفتى يبحث عن خرقة أو جريدة قديمة يمسك بها الشريط الذي وصله منذ لحظات ذلك العامل الكهربائيّ ، والزمّور يزداد صراخاً ، وأهل المنازل والدكاكين يتجمّعون على الشرفات والأبواب .

ويقول أحدهم آمراً :

ـ إفتح غطاء المحرّك !

والفتى يتناول خشبة وجدها في الصندوق ، فيتقدّم

ثالث من الناس ليفتح بيده غطاء المحرك ، فيقول الفتى له مستمهلاً :

ـ أنا عارف العلّة . إنّها هنا ، لا في المحرّك !

ثم يشدّ بالخشبة على الشريط فينقطع عند الوصلة التي تركها عامل الكهرباء بلا حجاب عازل .

وشرح لمن تحلّق حوله من الفضوليّين ما كان ، منذ لحظات ، مع عامل الكهرباء ، وقال لهم مطمئناً :

ـ إنّني سأعود إليه ليُتمّ الإصلاح بنصح ، أو بقدر الليرة على الأقلّ !

ولم يقل : أو أستعيد الليرة ! فإنّ ذلك عيب على « خواجا » هو ، في عرف هؤلاء الناس ، من الأغنياء ! ألا يرتدي ثوباً نظيفاً ؟.. ألا يعقد كرافاتة تبدو غالية الثمن ؟ فكيف يبحث في استعادة مبلغ زهيد ، في مصيف ينفق فيه أمراء البترول ، في الليلة الواحدة ، عشرات الألوف ، من غير أن ترتجف لأحدهم يدٌ أو ترفَّ عين ؟

وما هي إلاّ لحظات حتى أقلعت السيّارة ، ثم استدارت لتعود إلى عامل الكهرباء . إلاّ أنّ « طقطقة »

من المقود لفتت سمع أحد الحضور ، فأقبل يقول :

ـ ما هذا الصوت ؟ شيء غريب !

وانحنى ، كما ترجّل الفتى ونظر إلى حيث كان ينظر الشابّ المتبرّع ، فـإذا هي جلدة المقود تظهر في حالة من التمزُّق .

ويقول الشابّ :

ـ لا تسر ولا خطوة . تجد مرأباً عند تقاطع الطرق هناك ، فاذهب إليه وقل له : « مسعود » أرسلني إليك !

بهذه الكلمات القاطعة أنهى الشابّ حديثه ، وهـو يؤكّد على وجوب ذكر اسمه ، ليتسلّم « المرأبيّ » هذا الزبون ... يداً بيد ! والفتى يشكر ويتابـع سيره إلى المرأب ، عند تقاطع الطرق ، وهو مستسلم للأقدار !

وهناك بدأ العامل يحلّ براغي الجـلدة . ويقبل صاحب المرأب يمشي الهوينا ، فيناديه أحد المارّة :

ـ الحمد لله على السلامة يا « وجيه » .

ويسأله الفتى متحبّباً ومؤاسياً :

ـ ما كان بك ؟ أكنت مريضاً ؟

ـ لا ، ولكن وقع لي حادث سير : إنقلبت السيارة

بي ستَّ مرَّات !...

ثم أخـــذ يدلّ الفتى ، وهو يتحامل على نفسه ، على جروحه الظاهرة في وجهه ، وغير الظاهرة في أماكن مستورة ، وعلى قسماته تبدو صارخةً تلك الآلامُ التي عاناها ويعانيها . ويقول :

ـ نمت ، فتدهورت !

ويردُّ الفتى مفلسفاً ومقرّراً :

ـ أكثر حوادث السير يسبّبها الناس والسرعة ...

ويقول المرأبيّ بلهجة لا تقبل الجدل :

ـ نحن دائماً كنّا نسير من ملهى « الخريزات » عند طلوع الفجر ، بعد أن نكون قد ملأنا بطوننا ورؤوسنا بالطعام والشراب ، فلا يقـــع شيء من ذلك ! ولكنّه النصيب ! النصيب العجيب !

وما كان بوسع الفتى إلاّ أن يصمت ، ليحوّل هذه الثرثرة إلى عمل نافع ، وهو استبدال الجلدة بسرعة. فقد أبطأ العامل في انتزاع الجلدة القديمة المتمزّقة . وتدخّل « المعلّم » غيرَ مرَّة ، برغم أوجاعه وآلامه ، فما زاد ذلك العملَ إلاّ تعقيداً . إنّه كالعامل الأوّل ، لم يسبق لهما أن

عاجلاً إصلاح مثل هذه السيّاره ! ويقول الفتى :

ـ قبل سنة استبدلنا الجلدة القديمة بجديدة ، وتمّ ذلك بدقائق ، لأنّ العامل كان خبيراً .

ـ وأنا خبير ! ما تركت سيّارة إلاّ أصلحتها . أمس غيّرت جلدة سيّارة « بيجو » !

وضحك الفتى ليقول :

ـ طبعاً ! ولكنّ « البيجو » غير « الدتسون » مثلاً ! ولكلٍّ خصائص وأسرار في صناعته !

وهكذا مضت فترة طويلة ، ساعة ونصف الساعة ، اشتغل فيها « المعلّم » والعمّال بإصلاح خلل لا يستلزم أكثر من دقائق !

وهنا بدت مفاجأة لم يحسب لها الفتى حساباً : إنّ المعلّم يطلب مفتاح خزّان البنزين ، وقد حمل ناربيجاً ثخيناً وسطلاً فارغاً ! فما كان من الفتى إلاّ أن أذعن . ولكنّه ، حينما كاد السطل يمتلىء ، قال بعصبيّة لم يفت المعلّمَ مغزاها :

ـ ليس معي الكثير من البنزين ! يكفي هذا الآن ! فسحب المعلّم الناربيج . وقد لفت هــذا الطمعُ

اهتمام سائق سيّارة توقّفت قريبـــاً ، فضحك ضحكة تفيد :

ـ إحذر النّاس هنا ، فهم كالذّبان !

وأخيراً انتهى الإصلاح ... وقدّر الفتى أن تكون الأجرة ـ حسب معرفته ـ بين ليرتين وأربع ، فطلب « المعلّم » عشراً !.. وراح الفتى ، وهو يسير محطّم الأعصاب ، يفكّر في المصير الذي ينتظر أمّته ، ما دامت هذه الأخلاق هي قوام حياة فريق من أبنائها : سمسرة ، وغشّ ، وطمع ... ثم يطلبون النجاح . ويقول بصوت يعجب هو لسماعه ، إذ يعلو على هدير المحرّك :

ـ هذا كثير حقًّا ! هذا كثير يا جماعة !

الأسئلة

١ ـ يوم عاد أبي

ـ لماذا كان الضيوف يتكاثرون على منزل « راضي » وأهله ؟
ـ هل كان تذمّره من ذلك في محلّه ؟
ـ ماذا أصابه بسبب تعرّضه للبرد ؟ كيف شفي ؟
ـ هل كان لعودة أبيه تأثير على شفائه ؟ هـل للعوامل النفسية من حزن وفرح نتائج ملموسة على صحّة البدن ؟

٢ ـ قلوب كبيرة

ـ كيف تجرّأ أصغر الطلاّب « حبيب السماوي » على الردّ على سؤال الحاكم ؟ لماذا اقشعرّ بدنه بعد ان تكلّم ؟
ـ إستخرج من النصّ التعابير التي تدلّ على السخرية .
ـ لماذا انفجر الجميع ضاحكين حينما أجاب المدير عن سؤال الحاكم ، طالباً لوائح الطعام؟
ـ هل انتقم المدير من الطالب الصغير الجريء « حبيب السماوي » ؟ متى اكتشف ذلك، وأين ؟
ـ هل تحمل القلوب الكبيرة حقداً لمن أساء اليها ؟ ماذا قال السيد المسيح له المجد في التسامح ومحبة الناس ، حتى الأعداء ؟

٣ ـ أضواء المدينة

ـ في القصّة أوصاف وتشابيه جميلة . استخرجها من النصّ .
ـ هل تشبه القرية الموصوفة قريتك ؟ والمدينة الموصوفة، هل هي شبيهة بمدينتك ؟ كيف؟
ـ لماذا كان الفتى يفضّل المدينة على القرية ؟ كيف استطاع تحقيق أمله الكبير ؟ هل نجح ؟ كيف انتهت مغامرة هذا القرويّ الطيّب ، في دروب المدينة الموحشة ؟

٤ ـ خلافات محبّبة

ـ لماذا فقد « رمزي » ، بعد إنهائه دروسه الجامعيّة ، مرحه ؟
ـ هل كان لحسد ذويه أثر في تشاؤمه ؟ إستخرج التعابير التي يشير الكاتب بهـا إلى ذلك الحسد .
ـ هل تكون الأخوّة صحيحة مع الحسد والتباغض ؟ بمـاذا لقّب الكاتب تلك الأخوّة الكاذبة ؟

٥ - حينما تصدق الرؤيا

- هل يعتقد الناس عندكم بصدق الأحلام ؟ هل تذكر حلماً حلمت به تحقـّق في اليقظة ؟
- كيف يصوّر الكاتب حلم الفتى « موسى » ؟ لماذا صلـّى فور استيقاظه ؟ هل تحققت تلك الرؤيا ، وكيف ؟
- هل تتحسّس المحبّة الانسانية عند « موسى » ، في خشيته من تحقق رؤياه ؟ إنسخ العبارات التي تعرب عن ذلك .

٦ - كنوز لا تنفد

- لماذا غصّ « نديم » بلقمته ؟ لماذا كان « نديم » عجولاً ، متبرّماً أكثر من سواه من اخوته ؟ هل كان الحادث المؤسف الذي وقع له نتيجة لذلك الخلق عنده ؟
- كيف توقـّف الجرح عن النزف ؟ لماذا ندم الفتى وطلب العفو من أمّه وأبيه ؟
- هل تجد نزعة وطنيّة في هذه الأقصوصة ؟ أين ؟ ونزعة إنسانية ؟ أين ؟

٧ - محاولة

- لماذا كان بطل القصّة يصطحب ولده معه إلى السوق ؟ هل تأثـّر ولده بما وجده عند بعض الباعة من غشّ واحتيال واستغلال ؟ كيف اكتشف أبوه آخر استغلال فحال دون وقوعه ؟
- هل تجد في هذه القصّة الملامح الشائعة في الأسواق وغيرها ؟
- أذكر ما يصفه الكاتب من علاج لهذه الأمراض الاجتماعيّة الخطيرة .

٨ - معلمي الأوّل

- لماذا يعتبر بطل القصّة ذلك الرجل القوي الشخصيّة ، العظيم المهابة، معلـّمه الأول ؟
- لماذا يعتبر التدخين عادة سيّئة ، ومرضاً خطيراً ، وتبذيراً كبيراً ؟
- إنسخ التعابير التي تدعو الى الارادة ، والرجولة ، والحزم !

٩ - حتى الرمق الأخير

- هل تعرف أسباب القذارة في مدننا ؟ كيف حاول رئيس البلديّة أن يداوي هذا التخلـّف ؟
- هل تظهر لك سخرية الكاتب ، وهو يعالج الوسائل التي اعتمدها رئيس البلديّة ، بعد استشارة مساعديه ؟ إنسخ الجمل التي تدلّ على تلك السخرية .

محتوى الكتاب

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥
على مطابع دار غنـــدور ش.م.م.
بـــيروت

١٩٨٥ - ١ / ١٩١

منشوراتنا القصصية

١ يا بياع السمسمية
٢ أبو الخيمة الزرقاء
٣ حدثني يا ابي
٤ اسرى الغابة
٥ ملح ودموع
٦ يوم عاد ابي
٧ صندوق أم محفوظ
٨ جدتي
٩ عنب تشرين
١٠ عازفة الكمان
١١ وكان مازن ينادي
١٢ كانت هناك امرأة
١٣ يوم غضبت صور
١٤ بابا مبروك
١٥ الأنامل السحرية
١٦ المغني الكبير
١٧ جلجامش
١٨ نور النهار
١٩ النسر الكريم
٢٠ رنين الخناجر
٢١ النجمتان
٢٢ اين العروس
٢٣ جزيرة الوهم
٢٤ الغرفة السرية
٢٥ النار الخفية
٢٦ الحاج بجبح
٢٧ جوهرة الجواهر
٢٨ دهليز الغرائب
٢٩ التجاريب
٣٠ الصحائف السود
٣١ سلسلة من حكايات بيدَبا
٣٢ كوب من العصير
٣٣ المنجّم «عصفور»
٣٤ مغامرات أوليس
٣٥ وطلع الصباح
٣٦ اسطورة البحر
٣٧ الشريط المخملي
٣٨ سمايا
٣٩ الشكبون
٤٠ الحب والربيع
٤١ غرباء
٤٢ خاتم... لبّيك!
٤٣ وزّة الريش الذّهب

الثمن : [redacted] ق ل.